السحر والتمائم والحجب

« والرقى والعزائم »

—«×»—

— في معتقدات الشعوب الشرقية والامم السامية وغيرها —

لا بد انك أيها القارئ رأيت أطفالاً من الطبقة الفقيرة حملتهن أمهاتهن أحمالاً من الحجب المختلفة الأشكال والألوان والأوزان ، فمن « الخمسة » او الخميسة التي تئل بها عين الحاسد الى قرن الخرتيت ، وعرق السودان ، وقطعة « الفاسوخ » الملتصقة بشعره ومدلاة على جبينه ، وبجوارها عقد صغير من الخرز الأزرق ، الى منطقة من القيطان ينتهي بحجاب ضخم ، قد كتبه احد المشايخ في ليال وايام عدة ، واخذ ثمنه جنيهاً او جنيهين بعد ان رقاه برقية من « شمس المعارف » واذا تحولت ببصرك عن هذا الطفل المسكين الذي تراه على الرغم من تلك الوسائل لحمايته من الشر ، أصفر ضعيفاً خائر القوى ، ومرت بجانبك سيارة تنهب الارض نهباً فلا تهمل ان تلقي عليها بنظرة ، فسترى فوهة الماء بمقدمتها ، وقد ركبت عليها صورة شيطان بذيل او نسر طائر او قزم ضاحك وحوله عقد من الخرز الأزرق · واذا مرت بك السيارة والقيت نظرة على مؤخرها لتأخذ عينك بالهانم المضطجعة ، او الباشا المسترسل في أحلامه ، تلمح في نافذتها الخلفية ، صورة عروس او قرد « تخآف الحبايب » يتدلى ويترجح ، لانه مربوط من عنقه الى سقف المركبة بخيط دقيق كالمشنوق ، فاعلم يا اخي العزيز ان العفريت المذنب ، والخرز الأزرق والعروس المشنوقة ، كلها وقايات للسيارة واصحابها ، لتحويل عين الحاسد عن فخامة السيارة وسرعتها وجمال من فيها وثروتهم · فاذا كنت محباً للتاريخ او لعلم الاجتماع او باحثاً في علم النفس ، أدركت لساعتك ان المسافة بيننا ونحن الآن في

القاهرة في منتصف القرن العشرين ، وبين أجدادنا الأولين الذين عاشوا منذ عشرة آلاف سنة ، لاتزال من حيث العقل والاعتقاد قريبة جداً ٠٠٠٠

فقد كان الانسان الاول في فجر التاريخ يعيش وهو مملوء بالرعب من الكائنات والاحياء ، يحب الحياة ويتعلق باهداب النجاة بكل الوسائل ، فكان يلجأ الى التمائم والرقى والحجب ، ليحمي نفسه من الحسد او العين الشريرة ومن سحر خصومه ، وقوتهم ، ومن تألب أعدائه عليه ٠ وكذلك تحمل المرأة الحجب لتجذب قلب زوجها ، او معشوقها وتجلب محبته ، وكان بعضهم يلبسون الحجب ، لتقيهم الاصابة بالسلاح في ميدان القتال ٠ وقيل ذلك عن عثمان دقنة في حروب السودان ٠ وروى مثله الكولونل لورنس عن عودة ابو تايه الصديق العربي الشهير للحلفاء ٠ فقد روى للكولونيل الشريف المخلص للعرب ، وللثورة العربية ٠٠٠ انه لايصاب برصاص الاعداء لانه محجب ، وابرز حجابه الذي اشتراه باربعة عشر جنيهاً « وكان يطلق على الجنيهات كلمة (ليرات) محرفة عن ابيرات» فلما استأذنه لورنس في فحص هذا الحجاب ، ألفى انه نسخة فوتوغرافية مصغرة من القرآن الشريف المطبوع في جلاسكو عاصمة اسكوتلاند لاندا ، وثمنها شلن وثمانية بنسات .

وكذلك يلبس الشرقيون الحجب لتحصل لهم الخوارق وليتغلبوا على اعدائهم من ظهر منهم ومن اختفى ٠ فلما انتقل الانسان من حالة الفطرة وبدأ يعبد الآلهة ، اخذ يعتقد ان إلآه المعبود في حاجة الى الحجاب مثل حاجة العابد اليه ، ولم يتخيل ان الآه يستطيع العيش بغير حاجة الى القوى السحرية التي تنطوي عليهــا الرقى والعزائم والحجب ٠ ثم تطور فصار يعتقد ان الآلهة أنفسهم يمنحون البشر قوة السحر ، وكانت هذه الفكرة شائعة عند كهنة مصر المتحضرين ورفاقهم كهنة سومير و بابل ٠

واتخذ هؤلاء الكهنة معتقدات أسلافهم ومزجوها « بالخفاء الديني » اومسرالاسرار ، ومن ذلك الحين اخذ السحر والدين يسيران جنباً الى جنب و بدأ بعد ٠٠٠ فصار الآلهة سحرة ! واخذوا يوزعون السحر على الناس ، بواسطة الكهنة ! لاجل هذا ترى فرعون محاطاً بكهنة وسحرة ٠ وترى المعجزة الاولى التي ظهر بها النبي السامي الاول الذي بعث به الى مصر — كانت معجزة السحر ، من نوع مابنع به اهل الملة التي بعث بها اليهم ٠ فاذا اطلعت على الأدب المصري القديم والأدب البابلي ، وجدت السحر في معتقدهم

جزءاً لا يتجزأ من حياة الآلهة الذين مازالوا في حاجة اليه ليستعينوا به ، ويعينوا بعضهم بعضاً ، وينقلوه الى الناس عن طريق الكهنة .

وقد تفضل العالم الفاضل الروسي الاستاذ جولينشيف (Golénisceff) الذي كان حيناً أستاذاً للتاريخ المصري القديم بالجامعة المصرية ، فنشر كاغداً مصرياً اسمه « البابيروس الهيراتيقي » عدد ١١١٥ و١١١٦ حرف (أ) وحرف (ب) بمتحف الهرميتاج بطرسبرج في سنة ١٩١٣ ، وعهد هذا الكاغد لا يتجاوز الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنه نسخة من اصل يرجع تأليفه لعهد الأسرة التاسعة او الأسرة العاشرة . وهو خاص بالسحر وقد أطلق عليه بين العلماء اسم (بابيروس بطرسبرج) واليك بعض ما جاء فيه خاصاً بالسحر .

« ان الاله الاعظم (ربما كان يقصد رع) خلق السحر لمنفعة البشر » . وقد كتب الملك خاتي الذي حكم في الفترة الوسطى بين الأسرة السادسة وبين ملوك طيبة ، في الالف الثالثة قبل المسيح رسالة اوصى فيها ابنه « مري — كا — رع » ان ينفذ ما جاء بها بالدقة . قال الملك : ان الله (كذا) قد أنعم على الناس بخيرات كثيرة ، لانهم رعيته وقطيعه المحتاج لعنايته ورعايته وعطفه ، وقد خلق السماوات والارض لاسعادهم وهنائهم وبدد ظلمات البحار (يقصد المحيط الاول) وخلق نسيم الحياة ليستنشقوه ، وخلق الله جميع الخلق (رجالاً ونساء) على صورته وصنعهم من اعضائه ، وهو يصعد الى السماء ليفرحهم ويحسن اليهم وينعم عليهم ، وخلق الفواكه والخضر والطيور ذات الريش والدواجن المجنحة (الدجاج والاوز والبط) والأسماك السابحة والأغنام والمواشي ليأكلوها . وتبارك الله فقتل اعداءه ، وأهلك اولاده اذ تذمروا ، وتألبوا عليه . ان الله الذي جلت قدرته قد جعل نور النهار احساناً منه اليهم . ثم انه سبحانه خلق لهم السحر ليكون سلاحاً يحاربون به قوة الشر التي تحيق بالحوادث ، ويقاومون احلام الليل وأحلام النهار وما يزعجهم من رؤى !

وقرأ الاستاذ جولينيشيف كلمة (حيكاو) بمعنى السحر ، وهي التي تكتب في الهيروغليفية من الشمال الى اليمين « حبل مفتول — ذراعان مرفوعان — طائر العقر — واو مقلوبة — رجل راكع » . وكلمة (حيكاو) هذه تؤدي معنى السحر والطلاسم والصلوات المرتلة ، وكلمات القوة وكل فن من فنون السحرة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

و يوجد في المتحف البريطاني بابيروس تحت عدد ١٠١٨٨ يدل على القوة السحرية العظيمة التي كان يتمتع بها الرب (ريب' - أر' - چر) رب الحدود الذي كان اسمه ايضاً خبيرا (او الخبير !!) . وجاء في « كتاب معرفة أجبال رع » ان الرب وجد بنفسه وذاته ، بمفرده في المحيط الاول (استوى عرشه على الماء ؟ !) بالاسم فقط ، وذلك بطريقة « الحكا » او السحر ولكن هذه الطريقة لم توصف ، وقد اشتغل بقلبه اي بعقله الى ان صار كائناً ، فعرف المصريون بعد ذلك انه خبيرا او رع ! . .

ومعنى هذا ان الرب قد وُجد بالاسم فقط ، وقد جاء في الاسطورة ان الرب قد باح بهذا الاسم السري او الاسم الاعظم لايزيس لتتمكن من حكم العالم به ، وسبب ذلك ان ايزيس تمكنت بسحرها من خلق أفعى عظيمة سامّة واسرتها بلذع الاله ، فلما لذعته وسرى السم في بدنه وأيقن انه لاشك هالك ، باح لها بالاسم الأعظم ، فقرأت ايزيس تعويذةً شفته من لدغة الافعى . فظهر حذق ايزيس في السحرين الأسود والابيض لانها أماتت ثم أحيت .

ونرى عند اهل بابل والأحباش عقائد لا تختلف عن معتقدات المصريين في السحر والتمائم . كعقيدة احتياج الارباب جميعاً لسحر ، وما ينفع الارباب ينفع البشر حتماً ، فنرى عند اهل بابل « دوبو شيماتي » اوألواح القدر . وقد شمل السحر قدرة الشيخ على تفسير الأحلام ، وهو دليل اعتقاده بان الآلهة تزيح الستار عن الحقيقة لبني آدم بطريق الرؤيا الصادقة ، فذكر في كتب القدماء كثير من الأحلام ، وجاءت في الكتب المقدسة رؤيا يوسف الصديق ورؤيا فرعون وغيرهما . وكان اليهود يعتقدون في (اوريم) و (تميم) وكانوا يسألونها عن المستقبل كما كان شاول يستخير الله ، وكما كان اليونان يستفتون الوحي في دلف ، وكما كان العرب يسألون اهل الكهانة وكانت الكهانة علماً محترماً عندهم ، ونبغ فيه كاهنة اليمن التي أنذرت بخراب سد مأرب ومجيء سيل العرم ، وزبراء وسلمى الحميرية وعفيراء وفاطمة الخثعمية وزرقاء اليمامة .

ولما جاء الدين المسيحي صارت صور الرسل والشهداء والعذراء وبعض آيات من الكتاب المقدس بمثابة تمائم وحجب ، وقبل اختراع الورق كانت هذه الاشياء تكتب او ترسم على الجلد والعظم والمعدن . واكتشف المسلمون أن لأسماء الله الحسنى فعلها

السحري ، وكذلك بعض آيات القرآن الكريم مثل « ان بصرك اليوم حديد » وفي القرون الوسطى انتشر السحر الشرقي في انحاء اوربا ولا تزال منه آثار باقية حتى الساعة . وفي فرنسا قرى يعتقد اهلها في السحر و يطلقون اسم الساحر على احد اهلها ، وهذا مشاهد في مقاطعة سافوا . وألف هنري بوردو كتاباً اسمه « الجبيرة السوداء » ، قصة رجل يقتل زوجة خصمه بفعل السحر عن بعد ، وأسس علماء الفلك والطبيعة والرياضيات علومهم على علوم السومريين والبابليين والاشوريين ، ويقول الاستاذ والاس بدج ان في انجلترا واميركا الوفاً من الناس يعتقدون بامور كانت محترمة في بابل وآشور ، منذ ٥٠٠٠ سنة . فمهما كبر شأن العلم واتسع نطاق المعرفة وتأصلت الحضارة ، فلن يشفى الانسان من عقيدة السحر ، والتعلق بالتمائم والحجب والتعاويذ والاعتقاد بالتنجيم وصدق التنبؤ بالغيب والكهانة وفي اوربا الآن اشخاص يعيشون و يربحون ارباحاً طائلة من التنجيم وعمل الطوالع وكتابة الحجب والتنبؤ عن المستقبل ، وزاد الاقبال عليهم بعد الحرب ، وظهر في الثورة الفرنسوية كاليوستزو الذي قبض على زمام باريس بسحره وشعوذته ، وفي اوربا واميركا مئات من أمثال هذا الرجل . ليس علم التنجيم من العلوم الحقة ولكنه يصدق غالباً في معرفة اخلاق الناس بواسطة الطوالع التي تسمى (هوروسكوب) . وفي اوربا لعهدنا هذا آباء خرجوا لاولادهم طوالع وهم يربونهم ولايحيدون عن نبوة الطوالع قيد شعرة . و يوجد أطباء اوربيون وعلى الخصوص انجليز ، يعملون لمرضاهم طوالع و يتبعون العلاج الذي يظهر وصفه فيها . و يظهر في انجلترا في كل عام تقاويم فلكية للتنجيم أشهرها تقويم مستروايت وتقويم سيفار يال ومس آدمز . وكانت مدام تيب تصدر في فرانسا تقويماً سنوياً شهيراً ولما توفيت حل محلها كثيرون يتنبأون عن المستقبل واذا خاطبت عالماً طبيعياً في هذه الشؤون فانه يؤكد لك انها شعوذة ، فاذا ضربت له الأمثال بحوادث تعرفها معرفة شخصية يقول لك « لا بد ان يكون في الامر سر لا أدري ما هو ! » .

اما علم الكف فقد ظهر في الشرق والغرب ، وكان له شأن عظيم ، وألفت فيه كتب كثيرة وأشهر أربابه شيرو وهو رجل مختف وراء اسم مصطنع ، وتنبأ بمستقبل كثيرين من العظماء بمحض النظر الى خطوط اكفهم . ونرى بعض علماء الكف

يدلونك على ماضيك وحاضرك بمهارة ، وأطلق اسم شيرو على هـذه الصناعة فصـارت شيرومانسي .

وأشهر قراء الكف والوجه (علم الفراسة) من طائفة البارسي او مجوس الهند الذين توطنوا في بومباي بعد ان هاجروا من بلاد الفرس . وأقل مايستفيده البارسي لنفسه من علمه بالكف ان يتقي الاختلاط بالشرار ممن يكتشف شرهم بقراءة وجوههم والتفرس في أيديهم وكانت للعرب قدم راسخة في الفراسة .

اما طريقة «المندل» فطريقة علمية ، لانها مبنية على تنويم الناظر مغنطيسياً ثم تستعمل العصب البصري في التأثير في المخ فيستحثه فيبعث الى العين بمناظر الغيب ، وهو على أنواع أشهرها في اوربا الطريقة الهندية او النظر في كرة البلور ، او في كأس ماء او في بحيرة او في مداد مسكوب في الكف . وقد عرف بعض اصدقائنا رجلاً كان يقرأ المستقبل في عظمة من لوح الضأن فيسرد الوقائع بانتظام عجيب ، ولا يزال في ايرلاندا واسكوتلاندا واسبانيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وبولونيا سواحر يعشن من قراءة «البخت» بالورق او بغيره من أدوات المعرفة مثل فحص فنجان القهوة او «الحمص» او «قياس الاثر» ونعلم ان في السودان وغرب إفريقية سحرة وبعضهم يتصدون لقتل الناس بالايحاء ، فيذهب الساحر الى الرجل و يأمره بان يموت يوم كذا ثم يتركه « ويحصر ارادته في موته » ولا يزال هكذا حتى يموت الرجل ، وقد وضع مستر سومرست موغام قصة في هذا الموضوع وأيده الاستاذ بدج في مقدمة كتابه في العلوم الخفية ص ٣٣ .

وروى بدج نفسه ان مرشداً عربياً صحبه من دمشق الى بغداد ، وأخبره بان السر في وصولها سالمين يرجع الى خمس خرزات زرق معلقة باعلى جبين كل جمل في القافلة وأقنعه بان نجاح الاستاذ المؤرخ في شراء الكتب المخطوطة في وادي تياري يرجع الى الخرز الأزرق وحجب القرآن التي كان يحملها العربي . ولما بلغوا الموصل اخذوا حفنة تراب من قبر الحاخام «هرمزد» فأنقذتها من شر اليزدية او عبدة الشيطان ثم أخذوا حفنة مثلها من قبة ادريس فنجوا من الخطر في الشلال الثالث . ولما نهب عرب شمر قافلتهم لم يجرؤوا على قتلهم بسبب حجاب من القرآن كان يحمله المرشد العربي .

وجاء في ص ٣٦ من الجزء الثاني من كتاب التجريد الصريح لاحاديث الجامع

الصحيح (البخاري) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سُحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليـه انه يفعل الشيء وما يفعله حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت ان الله أفتاني فيما فيه شفائي أتاني رجلان فقعد احدهما عنـد رأسي والآخر عند رجليّ فقال احدهما للآخر ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم ، قال فيما ذا ؟ قال في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر ، قال فأين هو ؟ قال في بئر ذروان ، فخرج اليها النبي (ص) ثم رجع فقال لعائشة : حين رجع « نخلها كأنه رؤوس الشياطين » فقلت : استخرجته ؟ فقال : لا ! اما انا فقـد شفاني الله ، وخشيت ان يثير ذلك على الناس شراً ثم دفنت البئر .

وفي رواية أخرى أوردها الشرقاوي والغزي في الحاشية انه صلى الله عليه وسلم وجد في الطلعة تمثالاً من شمع تمثال النبي صلى الله عليه وسلم واذا فيه إبر مغروزة واذا وتر فيه احدى عشرة عقدة فنزل جبريل بالمعوذتين فكلما قرأ آية انحلت عقدة وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً ثم يجد بعدها راحة . اﻫ البخاري وشرحه .

وطريقـة صنع التماثيل من الشمع او القماش ووخزها بالابر او الدبابيس لاحداث الألم في الشخص المقصود والمصنوع التمثال على صورته شائعة في الشرق ، وكانت معروفة لدى القبائل الوحشية من سكان اوستراليـا الاصلاء والهنود الحمر وغيرهم . ولا تزال تعملها الضرائر بعضهن لبعض في مصر .

وكان قيصر روسيا يلبس خاتماً فيه قطعـة من خشب الصليب الصحيح ويتعلق به ، وكان يعتقد ان هذا الخاتم قد وقى حياة جده فنسيه يوماً فصادف حدوث قتله في ذلك اليوم (راجع كتاب اصول الاوهام الشعبية تأليف شار بر نولصون ص١٥٦) وكان مستر روكفلر الشهير يحمل في جيبه حجرالنسر وفي داخله أجسام لها كما ا نز رنين خاص ويؤمن بان هذا الحجر يقيه المرض والغرق وغيرهما من المصائب (الكتاب نفسه ص١٠) وكا . الاستاذ رايت المعلم في كامبردج يلبس خاتماً من الذهب من لوانجو عليه رسم خاتم سليمان ، ويقول انه لا يستطيع العمل ان لم يكن متختماً به .

وكان هنري سيجراف يحمل تميمة في جميع مسابقاته فنسيها يوم موته . والانجليز من اهل اوستراليا يعتقدون بان صورة الكانجرو تحميهم وتأتيهم بصنوف من النجاح والنصر .

وروى لي شاهد عيان ان الخديوي عباس حلمي يوم أطلق عليه الرصاص في الاستانة (يوليو سنة ١٩١٤) بيد الطالب المصري محمد مظهر ، كان يحمل في احد جيوبه حجراً من الزبرجد عليه بيت البردة الشهير :

وقاية الله اغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عالٍ من الأُطُمِ

فرت الرصاصة على الحجر وانزلقت ، ولم تصب جسم الرجل ولو انهـا تخطت الحجر الكريم ، لأصابت القلب نفسه .

واحة عين شمس (مصر) : محمد لطفي جمعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجالس اناتول فرانس

-٢-

كانت مجالس اناتول تغص بكبار الناس عقائل وأوانس وسادات مشهورين من رجال السياسة الى الأدب الى رجال الفن الى الصحافة والطباعة الى الشعراء والشاعرات والكتاب والكاتبات الى المشتغلين بالمشرقيات ، وكانت هذه الطبقة ملازمة له كل اربعاء ، ومنها من يتناول الطعام على مائدته ، ومن جملة من كان يغشي مجلسه المفيد جورج بس وطومسون وكليانسو وبريان دلوقي وسوالي برودوم وريجان ولو بي فوللر وهالفي و بربال ، ولم ينقطع عن مجلسه سوى ميترو باريس وموراس وكوبيه لانه تطوع في قضية دريفوس فأصبح في القوصهم شيء منه ، ومع هذا كان يجعل لكرام العقائل والغادات الفاتنات نصيباً من الكلام وربما فاه أمامهن بامور قد تستنكرها العادة والعرف .

تكلم مرة على البكارة في العوانس وهزأ بها تهكماً ، وقال ان الفتاة اذا بلغت الثلاثين كيف يطلب منها وهي بهذا الاختلاط ان تحتفظ بعفتها الخ . وذكر في مجلسه ذات يوم ان فتاةً خطبت وانتظرت خطيبها مدة الحرب اربع سنين لم تلبس ببنت شفة ، وقالوا ان من كانت على هذه الصورة لا بد ان تحتفظ بعد العهود الزوجية ، فقص اناتول قصة شاب انكليزي من أصحاب الأطوار الغريبة ومن ارباب السعة . قال انه خطب فتاة وكان غيوراً جداً وادعى ليلة البناء عليها انه طلب الى مكان بعيد وان شرفه يقضي عليه بالاسراع . فزوّد خطيبته مالاً تعيش به وسافر في الارض خمس سنين ، ثم جاء الى لندرا وعاد ثانية مدة طويلة ، ثم عاد الى بلده واكترى دكاناً في حي خطيبته واخذ يستقري أخبارها ، فعرف انها صابرة على الفراق تنتظر أوبته ، وانه دخل عليها الدار بعد مدة وقد علاه المشيب وقال انه وان أضاع كثيراً من السنين في البعاد الا انه يرجو

ان يعيش في السنين الباقية له مغتبطاً . قال اناتول : ان هذا الرجل بعد التجربة الطويلة يكون من حظه ان لا تخونه زوجته ، اما ان يكون على ثقة من ذلك فليست موضوع بحث .

كان فرانس عجباً في نقده المجمع العلمي الباريزي ، يصف اعضاءه بانهم أناس رجعيون ، وانهم يؤلفون دولة في وسط دولة ، وانهم يتألفون رجال السياسة بلباقة . وانهم لا يعنون بالانشاء والتأليف وانهم اعداء الحكم الجمهوري ، وهم يسكنون في قصر من قصور الأمة ، ويتمتعون بامتيازات طيبة ، والوصايا تغدق على مجمعهم من كل صوب وحدب ، فهم أغنياء لا تخضع موازنتهم لمراقبة الدولة ، وينفقون الأموال والجوائز على الجمعيات الدينية وعلى الناقمين وارباب الثقافة التافهة ، والمجمع آلة فساد ادبي لغوي ، وأشهر ساسة فرنسا يقدمون على أنواع الدناءات والدفاسف لينالوا شرف الدخول فيه .

وسألته امرأة اميركية لها صلات كثيرة بالماليين — وكان يهزأ بها في باطنه ، فاذا غشيت مجلسه يسألها عن اسهم شركات الذهب وعن اسعار الاوراق المالية والسندات — قائلة انني لم أذهب قط الى المجمع العلمي فما تصنعون هناك اذا اجتمعتم . وكان فرانس منقطعاً عن المجمع العلمي منذ مدة ، فتلقى كلماتها بدهشة وأجاب بقوله : اننا ايتها العقيلة نخوض في الموضوعات السامية ، ونحاول ايضاً ان نحل المسألة التي طالما ذهبت فيها الآراء مذاهبها ، وأعني بها خلود الروح ، وأحياناً نلقي نظرات وتأملات في الجمال على ما عرفه أفلاطون ، فنحن ابداً في نظام غير مادي ، نبحث فيما وراء المادة ، وحديثنا في السموات العلى . فدهشت السيدة لمقاله ، وأعجبت بهذه الجلسات التي يجلسها رجال المجمع ، فعاد هو وعقب على قوله : لا ياسيدتي ليست جلسات المجمع على شيء من الجمال ، فلا تصدقي شيئاً من ذلك ، فانا في الحقيقة نتكلم قليلاً ونطل سكوتاً هناك وكثيراً ما نشعر بالبرد لعدم التدفئة في قاعات المجمع . ولما كانت جمهرتنا من الشيوخ ترينا محزونين فاننا هناك نحمل معنا أحقادنا وهمومنا القاسية ، ونحن مخلوقات على صغرنا اي نحن أناس يقل فينا الذكاء ، فجلسات المجمع العلمي موحشة لا تخلو من رقاعة .

وقال مرة انه لم ينتفع من لقب المجمع العلمي الا يوماً واحداً وذلك انه كان مع فتاة في مكان لا تسوغه القوانين العامة فجاء الشرطي فلما اقترب منه ، اخرج فرانس من جيبه

بطاقته وشفعها بريال ودفعها له ، فسلم الشرطي تسليم اجلال ، وقال : ولكن ياسيدي ان قسطان السيدة احمر وهو يبدو عن بعد كأنه علم فقال لا بأس ٠ فان القسطان سيرفع عما قريب ٠ وهذا من غرائب فرانس و يستدل من كثير من وقائعه انه كان يعبث بمصطلحات المجتمعات ويضحك من القوانين والعادات وتغلب عليه امور الحس ٠

تكلم يوماً على الشاعر فقال انه اكبر من ملك ، وهو رب سيف الارباب فان قريحته توليه سلام القلب وافراح الفكر ، فهو بدون ان ينقلب من سريره يكتشف مثل خريستوف كولمبس قارات جديدة ، وبدون ان يحرك بفتح مثل شارلمان بلاد الامم الاصلية الاربع ، ومن دون ان يبتعد عن منضدته يحب جميع النساء مثل دون خوان٠ فالناس من اجله يكشفون الجمال ، وينفذون المشاريع العظيمة ، وهو الذي يرى ان هيلانة فتانة وكليو باترا ملولة ، وهو يلتقط جميع الحركات ، ويرى جميع ضروب الحياة ، ويستمتع بكل ما في العالم من سرور وهو من القدرة على التصرف بحيث يجمع الكائنات ولكنه يبدد صورة العالم ٠

وقال مرة اثناء كلامه على فيني الشاعر : ما من احد يتلو شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، وهذا المجد خاص بالشعراء عامة فهم أداة تعين العشاق على الحب وهم سمامرة من الطراز الاول ، وأرى ان النساء اليوم يحببن قليلاً ، فان الناس يتلاقون ويتضامون ولكنهم قلما يحبون ولذلك تخلوا عن تلاوة أقوال الشعراء ٠ واي امرأة تستطيع اليوم ان تكرر كلة شقيقة شاتو بريان وهي تحتضر قلقةً امام الراهب بقولها : آه ايها الأب ماذا اقول لمولى اذا مثلت أمامه وانا لا أعرف غير أبيات من الشعر٠ اي انها كانت تحاذر ان تلقى الله وهي لم تتعلم غير الغزل ٠

* * *

كان فرانس خلال الحرب العامة يلتزم الصمت ولايجاهر بافكاره بعد ان رأى ماحل بصديقه جوريس من الاغتيال ، بل كان كثيراً مايصانع القائمين بالحرب ويمتدحهم ويثني على اعمالهم ٠ وقد رأى ذات يوم فتاة تصادقه وراوته تحمل اليه باقة زهر فتذكر قصة وقال : هل في وسع الفتيان والفتيات ان يقضوا ياترى بتأثيراتهم على الحرب ، فقد حدث في الحرب الدينية بين الكاثوليك والبرتستانت ان الموسيين سيف فاجعة كوتزبو

ضاق خناقهم من محاصريهم ، فأرسلوا ذات يوم أولادهم ذكوراً واناثاً من سن السادسة الى الثانية عشرة يحملون أغصان الزيتون ، فدهش المحاصرون من هذا المشهد ، وكفوا عن الطعن بحرابهم ونشابهم ، وتصالح الاخوان المتقاتلون على الدين ، وكان ذلك اول مرة تغلبت فيه الشفقة على القسوة . وقال : ان عصر الهوسيين كان متوحشاً ، ونحن ارتقينا منذ ذلك العهد ، ولا نستطيع ان نتصور اليوم ان جيشاً من الأطفال ذاهباً الى الالمان ، فانهم قبل ان يلحجهم العدو تكون المدافع قد أتت عليهم بجملتهم ، واذا ساغ تحريك عواطف الجندي القديم فهل في المكنة تحريك عواطف السياسيين وأرباب الاموال ، فنحن قد تمدنا ولذلك ليس للعواطف سلطان علينا .

حدث راويته قال : ان اناتول كان ذات يوم يتمدح الماضي بفصاحة زائدة وانه كثيراً ما كان يحب المتناقضات ويوردها مختاراً قال : أصبحنا بارتقائنا اقل صبراً من أجدادنا واقل قابلية لتحمل المكاره ، فان المدنية لا تساعد على توسيع الأمل ، وتحمل الشدائد ، لانها تظهر الحقيقة على علاتها ، ولذا يذهب بي الفكر الى الاسف على الماضي ، وعلى الرغم مما تم من المخترعات والمظاهر والمصارف المتنوعة ، وعلى الرغم مما اخترع من الطيارات والغواصات والاسلاك البرقية ، لا أرى اننا بلغنا من حيث المعنويات ما بلغه أجدادنا . لقد كان للمجتمعات قديماً شراب مسحور عجيب في اسكاره ، وبلاسم مؤثرة نعينها على الاحتمال . ولم يكن الامل والحرية قد افقرت منها الارض ، وكان آباؤنا يعترفون مثلنا ان الحياة ممزوجة بآلام ، بيد انهم كانوا يرون انه لابد ان يعقبها سرور دائم ، فكان الشر في نظرهم كظل صورة جميلة ملئت بالمنازع ، والالم شارة اصطفاء ، والموت ممر الى النور ، وكانوا على ثقة اذا رفعوا عيونهم خلال صلواتهم ان عيوناً أخرى تأتيهم من السماء فتقابلهم . واي عزاء للنفس أحسن من الاعتقاد بان صوتاً الهياً يناديننا يوم الحشر في قبورنا ، ويتجلى لنا تعالى ولوليعاقبنا بمناجيتنا . وأحب ايضاً ان أعتقد ان الارض خلقت خلقة اسمية وانها متصلة بالسماء كل الاتصال وذلك بطائفة من الملائكة او وسطاء الشياطين وانها في وسط الوجود .... ولكم كانت الأوهام عذبة في مذاق من يعانون المصائب ، ونحن نعلم الآن ان هذه الكرة الارضية ليست سوى نقطة من الطين في محيط غير متناه مما يتألف منه العدم . نعرف هذا ونعرف ان الانسان ليس من العوالم

المختسارة ، بل هو درجة من السلم الكبيرة في العوالم ٠٠٠٠ ولم يبلغ الانسان من النظام مبلغاً يؤهله الى فهم الحقيقة ولا يرى وان يري ابداً شيئاً من الحق فهو مخدوع وسيخدع على الدوام ٠ وذكاؤه اوصله الى معرفة الفناء ، وهو في الواقع ذكاء محدود لا يطلعه على شيء اللهم الا على أوهام في الحواس ٠

بقيت مسألة الوجدان فانها ما زالت منذ عهد (كانت) الفيلسوف موضع نظر الفلاسفة المحدبين ، يدعون ان صوته يسمع فينا ، وهو يملي علينا واجباتنا ، ويناديناحتى على المعنويات ، ويدعونا الى ان لانعمل للغير مالانريد ان يعمله معنا ٠ وهكذا فاناشاهد الفيلسوف رنان مثلاً يريد الاحتفاظ بمظهر المقصد الاسمى ، فبعد ان انكر وجود ادنى أثر للارادة الآلهية في العالم صادق على فكرة الوجدان الذي يستلزم فكرة وجود الاله تعالى ٠ وهذا يذكرني ببعض الفلكيين الذين ظلوا على نصرانيتهم يقومون بما تفرضه عليهم و يؤكدون انه انقضى للنور مليون من السنين حتى وصل الينا ، وان الشمس ونظامها تسيران في اللانهاية منذ مليارات من القرون ، ومع هذا فانهم لم يبرحوا يعبدون الاكاذيب التي اتى بها ذاك الشيخ اليهودي الذي زعم ان الارض خلقها في سبعة ايام و يؤكد انه أدار الشمس حول الارض وان اصل الخليقة لا يرد الى أكثر من سبعة آلاف سنة ٠

وقال يوماً : الناس في غفلة عن ان العالم ينقض و يتداعى فهم لا ينظرون الى مايحدث مع ان الحالة بادية محسوسة فالعالم بل وكل عالم لا يعيش اذا لم يجعل الكمال له غاية الغايات ، بيد ان المقصد الأسمى على مايظهر آخذ بالنفاد ، مشرف على الانتهاء ، وما من امر يأخذ بيدنا ، وما تمدنا المرائي سوى ركام من المظالم آخذ بالخراب ، فقد كان الناس فيما مضى يعيشون بالمعتقدات والرجولية والذكاء ، فكان عيشهم وحشياً ، ولكنهم يعيشون بقوة ونشاط ٠ ولا يعيش الناس اليوم الا بالمال ، وكل أمانينا منصرفة الى الاستمتاع ٠ كانت الكتابات المحبوبة التي تنعالى في القرون الوسطى عبارة عن تأليف الاغاني وعن الابتعاد عن الاختلاط ٠ وأقصى غاياتنا اليوم ان نبلغ مانريد وان نخادع ونخدع وان نضارب ونضرب ولاشيء يكبح من جماحنا ٠ والناس لا يحسنون التفكير ولا يجيدون الكتابة ٠ وما خلا هذه البلاغة السياسية التي هي فن الغش بالألفاظ وصوغ الوعود بدون القيام بهـا ، والقاء البارود في العيون ، والاختفاء وراء حجاب لا شيء يبقى و يدوم ٠

لقد خلف ارباب الأموال فرسان القبر المقدس وكبار العلماء وعظماء المحاربين والقديسين والأبطال وأصبحت المجتمعات في ثورة متقدة لانها لاتقوم على اساس، ولانها خالية من رأس مال حقيقي في الأخلاق وكل انسان يطالب بالسعادة، و يعتقد انها عبارة عن ان يأكل طيباً وان يقتني مركبات لحسابه، اما الامل والمفاداة والصبر والشعور وانها فرع من أسرة في مجموع العالم فهذا ما لا بال له ٠ ولانزال نتبجح بكلمات مبهمة لا محصل لها كالحب والاخاء، ولكننا أضعنا معناها او وضعنا لها معنى نرتجله وهو الفدامة بعينها ٠ أصبح المجتمع على خطر لانه ضعف ضعفاً طبيعياً وتبدل لمكان المدنية من التسرب اليه وهو يقضي بامراض السرطان والسل، وهو الى المرض أدنى لانه لا يقوم على أساس راهن ٠ وتكثر في هذا المجتمع المصائب والنوائب، ولذا كان حرياً بالهلاك، وذلك لان كل ما هو ماثل لا اثر فيه للفضيلة ٠ وعزّ فيه ظهور العظماء من الناس وانقطعت الحماسة الحقيقية ٠

ولما قال له مخاطبه : ان حكمك على هذا العصر قاس يا سيد، اجاب : وبعد فما أعمل وانا لم أرزق ملكة الاستسلام للأوهام، وهي من العوامل المساعدة على الحياة ٠ ولما كنت أنظر الى الامور نظراً واضحاً فقد ارى أناساً ليست لهم اقل قيمة في الأخلاق والعلم وهم مع هذا يضطهدون غيرهم ٠ واذا طمحت المجتمعات الى ان تظل قائمة بتعذيب الضعاف فعلى الاقوياء ان ينجوا و يبرّزوا و يخلصوا لما هم بسبيله ليكونوا اهلاً لما امتازوا به من الخصائص، بيد اننا لانفتأ نعيش في الظلم على حين نتساوى في التوسط والاعتدال وفي كل مكان نجد للاتجار بالسلع الرديئة رواجاً، وا ينما تطلعت ترى الطمع في الاستمتاع على صورة بشعة مفرطة آخذاً باعنة الناس ٠ قال : واني لأرى المصانع القديمة آيلة الى مرض شديد ولا أعتقد ان في المكنة احياء الأموات، وارى شعلة الدين والحكم المطلق، وكانت مما يعزّ على بلزاك، قد اخذت تنطفئ، اما الجمهورية التي هي طراز من الحكم طالما دعوت اليه، فالظاهر انها لاتحوي عناصر لمقاومة الاعاصير، بيد ان تبديل الحكومات ليس الا ظاهرة من الظواهر، والأزمة عمت وطمت، فنحن يا صاح في حالة تشبه حال العالم الروماني غداة غارات البرابرة ٠ عالم ينتهي وآخر يبتدي ٠

ومن آرائه (بتعريب فاخوري) : ليس التاريخ بعلم بل هو فن ، ولا يجمع فيه الا اصحاب المخيلة ، ينسخ المؤرخون بعضهم عن بعض فيكفون انفسهم العناء ولا يهتمون بالغرور . اقتد بهم ولا تكن مبتكراً ، فالمؤرخ المبتكر موضع هزء واحتقار واشمئزاز عند الناس كافة . ومما قاله ان التاريخ ليس مجموعة أقاصيص اخلاقية او مزيجاً من الحوادث والخطب البليغة فقد لا توجد فيه قطع بيانية جميلة ولكن لا ينبغي ان تلتمس فيه حقيقة ، لان الحقيقة هي اظهار ما بين الاشياء من نسب لازمة ولا سبيل الى اثبات هذه النسب لان المؤرخ عاجز عن اتباع سلسلة العلل والمعلولات . فليس التاريخ اذاً بعلم لانه مقضي عليه بعيب في طبيعته ان يلزمه غموض الكذب وان يعوزه السياق والاتصال اللذان لا معرفة حقيقية بدونهما . . التاريخ ليس بعلم لان الثورات والحروب لا تنضبط بحساب . قال : على مَ تؤلف تاريخاً وليس عليك الا ان تنسخ من أشهر كتب التاريخ كما هي العادة ، ان كان عندك فكر جديد او رأي خاص ، او كنت تظهر الناس والاشياء من وجهة غير مألوفة . فانك اذاً تباغت القارئ والقارئ لا يحب ان يباغت . هو لا يلتمس في التاريخ الا الحماقات التي يعرفها فاذا اجتهدت بتعليمه كانت ثمرة جهدك ان حقرته في عين نفسه فأغضبته . لا تحاول إثارة فكره والا صرخ قائلاً : انك تسفه عقائدنا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال ان الحرب اليوم عار الانسانية وكانت من قبل فخرها ، لقد أوجبتها الضرورة على الممالك فكانت مربية النوع البشري الكبرى . بها مارس ابناء آدم الفضائل التي تشاد عليها الحضارات وتدعم بها قواعدها ، علمتهم الصبر والحزم والاستهانة بالمخاطرة ومجد التضحية . ويوم دحرج الرعيان قطع الحجارة الضخمة لبينوا منهـا سوراً يحامون وراءه عن نسائهم وثيرانهم ، أنشئ اول مجتمع انساني وضمن ترقي الصناعات . وهذا الخير العظيم الذي ننعم به أعني الوطن او المدنية او ذلك الشيء الجليل الذي عبده الرومان ورفعوه فوق الآلهة انما هو ابن الحرب .

وقال في هذا المعنى : لا مراء في انه ستقع ايضاً حروب كثيرة فان الغرائز الوحشية والاطماع الفطرية والكبرياء والجوع التي أتلفت العالم خلال عصور متطاولة ستبقى على إتلافه ايضاً . وهذه الكتل البشرية الكبرى الآخذة اليوم في التألف لم تجد بعد قاعدتها ولم توفق الى توازنها . وكذلك لم ينتظم تداخل الشعوب بعضها في بعض الانتظام الكافي

لضمان الرفه العام بحرية المبادلات وتيسرها كما ان الانسان لم يصبح بعد محترماً في نظر الانسان ولم تتساو أجزاء البشرية في دنوها من روح الاشتراك والتعاون لتكون جميعاً كالحجيرات والاعضاء في الجسد الواحد ، وليس بمقدر حتى لاحدثنا سناً ان يشهد ختام عهد السلاح . بيد ان تلك الايام السعيدة التي لم نعرفها نحن نحس بمجيئها ، فاذا مددنا الى عالم الغيب هذا الخط الذي نرى بدايته كان في وسعنا ان نرى مواصلات أوفروا كل بين الامم والشعوب ، وشعوراً أعم وأقوى بالتضامن الانساني ، وتنظيماً أفضل للعمل ، وبالنهاية قيام (الدول المتحدة) في العالم بأسره ، وسيتحقق السلم العام ذات يوم لا لأن البشر يصبحون خيراً مما كانوا (هذا لم يؤذن لنا ان نرجوه) بل لأن نظاماً شديداً للاشياء وعلماً جديداً وضروريات اقتصادية ستلزمهم بحالة السلام .

* * *

هذه بعض جمل اثرناها مما نقل من كلام اناتول فرانس في مجالسه ونظن انها تمثل لكم روحه ومنازعه في الحياة ويتخلص منها انه من اصحاب الشكوك يشك في كل شيء ويقدح في المدنية الحاضرة ويسيء الظن فيها ، فليس هو اذاً من القصصيين العاديين الذين أنبغهم الغرب ، بل هو عالم يحسن بث علمه في الجمهور ، وعلمه هذا تقرأوه في قصصه منثوراً نثر الذهب على نمارق من مختلف الزهور ، ولا تفهمها على جليتها الا اذا قدرت لك تلاوتها باللسان الذي كتبها به ابوعذرها ، وهو الغاية في الابداع والبيان وجمال المأتى .

واذا رأيت الكاثوليكي المتدين قد تنقبض نفسه لذكره فاعرف ان اناتول لم يترك للصلح مكاناً مع اهل الاديان . واذا سمعت بان مالياً غنياً يحتقر افكاره فاعرف ان اناتول حاول ان يسقط هذه الطبقات لانها جائرة على ما يرى على المجتمع . ومعظم ما أصابه من الشرور كان بصنعهم وكزازة ايديهم ، وما ارتكبوه من الموبقات للاحتفاظ بمكانتهم والاستمتاع بشهواتهم . واذا قيل لك ان بعض طلاب التوسع في فتوح الممالك احصوا عليه أنفاسه في حياته ، وخافوه وعدوا موته نعمة عليهم فأيقن انه حاربهم طول حياته ، يريد ان يقنع كل مالك بملكه ، وترجع كل دولة الى حدودها الطبيعية . والحاصل ان اناتول عادى كل الطبقات في الباطن وان ألان لها في الظاهر أساليب الكلام ولذلك قل في قومه خصوصاً أنصاره وأعوانه ، وزامر الحي لا تطرب مزامره ، ورحم الله عمر بن الخطاب إذ قال ماترك الحق لعمر من صاحب ، فالناس مذ كان اول اجتماعهم قد يرضون عمن

برائيهم ، ولا يرضون بحال عمن يتقدم ليقودهم الى الخير والسلام ·

وبعد كتابة ما مضى القول فيه حملت جريدة لنوفيل ليتريرLes nouvelles littéraires البار يزية . مقالة لروزني البكر من اعضاء مجمع كونكور العلمي ، جاء فيها ان امرأة من مدهشات النساء كانت هي الملاك الحارس لأناتول استولت زمناً على عقله ، فكانت تصرفه كما تريد ، وتعنى بماديانه عنايتها بمعنوياته ، تتعهده في لباسه وهندامه ، وتحمله على حضور جلسات المجمع العلمي ، وتفصل في قضاياه مع المتجرين بادبه تحفظ له حقوقه بما تعقده لمصلحته من الشروط ، وتكسبه من قلمه أقصى مايمكنه احتيانه من مال ، وكانت تريده من حيث المعنويات ان يكتب كتابات حية ، بعيدة ماأمكن من مقتبسات الكتب ، وقد وُصف اناتول بانه أرضة المكاتب او جرذ الخزائن · ومع هذا حملت كتبه كمية وافرة من آراء الناس وعتيق فلسفتهم · ذلك لان اناتول كان بطبيعته مهملاً متوانياً يرضيه ان يضيع اوقاته في معالجة النصوص التي أكل الدهر عليها وشرب ، وهو على نوع من البلاهة يحملق فيما يشاهد ، ولا حظ له من امور الدنيا ، فكانت العقيلة تشذب من حواشيه ، وتحمله على الجادة لتعلي اسمه ، وتدخل النظام في عمله ، وتحببه عن موضوع المحاورات الكثيرة فيما يكتب ، وتبعثه على ادخال الحياة في كتاباته ، وتجد كل الجد ان تلقي في روعه قصصاً حية قائمة على الملاحظة مملوءة بالغرام والحب ، وكان معها اذا ضايقته يغضب و يقف باهتاً لاحركة ولاسكون ، لانه عرف بميله الى الكسل ، ولا يتلذذ الا بقراءة المفكرات والامالي القديمة ، بنشر ما ينم عن تحقيق علمي ودقة في الانتفاع بالأسفار ، والاخذ بمذاهب الفلاسفة ·

وكان يضيق صدره من معالجة قصة جديدة وكثيراً ما يقول : انا لا تطمئن نفسي اذا حاولت ان اقص شيئاً من عندياتي ، بل خلقت في حاجة لان أقع على قصة كتبت بقلم غيري ، وهيأت في الجملة · اما صديقته فكانت تعذله وتسوقه الى وضع قصصه مباشرة من تلقاء نفسه ، وتطلب منه عملاً وحباً ، وبعملها ومراقبتها جوّد اناتول روايات تايس ، والزنبقة الحمراء ، وسلسلة قصص برجريه البديعة ، وكان من احسانه فيها مكافأة له ومكافأة لها ، ولكن ذلك لم يمنعه من الرجوع الى مايحلو له من القصص البالية · وبالجملة فقد كان لها تأثير حقيقي في فن اناتول ، وهي لم تعدّل اصول عمله ، ولاحسنت ذوقه ،

بل بددث فيهما ، وحقنتهما بدم طري ، فأسدت اليه معروفاً لايبلى على الايام ، حتى اذا أطلق وشأنه أوشك ان يعود « جرذ كتب » مع ما يتخلل عمله من فترات وخلاعات . كان لايتعب مما يدون من مطالعاته ، ولا يربأ بنفسه ان يكون عبد الكتب القديمة ، ومغرماً في التحدث بما كان يقرأ من الأسفار .

قال : ولقد كان لهذا الملاك الحارس بعض التأثير في آراء اناتول السياسية الظاهرة . قلنا الظاهرة لانه كان من المتعذر علينا ان نعرف حقيقة آرائه ، و كيف يتصور في هذا السفسطائي العام ان يدخل في حزب او يدين بمذهب اجتماعي ، فقد رأيناه الا قليلاً من حزب البولانجيين لما كانت هذه العقيلة منهم . فلما حدثت قضية دريفوس وتحزبت له ماشاها اناتول ايضاً ، وأصبح اشتراكياً عندما اخذ جوريس يعد من ندماء بيت السيدة ، وكان في آخر مرحلة من حياته يميل الى الشيوعية السوفيتية حتى قال علناً : اني احب لينين حباً مازج قلبي . ويرى من المضحك ان يتشدد المرء في الاحتفاظ بمعتقد ، وكل عمله خروج على المعتقدات ، وما كان أمام المعتقدين الا هازئاً او مشفقاً او خائفاً .

وقال ، بعد ان وصف كيف كان ذلك الملاك الحارس يفتح قصره يرضي زوجه لاناتول وضيوفه وكانوا علية الطبقات السياسية والعلمية والفلسفية وفيهم أجمل العقائل والاوانس : ان اناتول كان ناكراً للجميل وذلك انه لما بلغ قنة الشرف ، واغتني بتآليفه وأصبح يأتيه منها ريع عظيم ، نفض يديه ممن عملت كل شيء للاخذ بيده ومزجت شخصيتها بشخصيته ، فأصبح لايحب ان يراها ، وتركها كأنه لم يغن امس في حماها . وما يدريك انه كان حانقاً عليها على غير رضاه ، لانها حاولت دون سيره السير الطبيعي . وحقيقة انها منذ اخذت بزمامه انشأ في الأحايين يبدو كأنه يحاول التفلت من قيد ، و يسير على غير هواه وميله . لقد كان الكسل حبيباً الى قلبه ، والعقيلة تحاول ان تطرد من فطرته تشرده العقلي كما تطرد ربة الدار نسج العنكبوت عن متاعها . انها لم ترم الى تهذيبه ، اما هو فاستطاع بدون عائق ولا هم كثير ان يتذوق طعم الجمع والبحث الى آخر ايامه اه .

* * *

هذا ما قاله روزني في اناتول و كتب جورج لوكونت من أعضاء المجمع العلمي الباريزي

في آخر عدد صدر من مجلة لاروس الشهرية المصورة Larousse Mensuel Illustré خلال كلامه على القصاصين في فرنسا ان اناتول فرانس من الرجال الذين أحرزوا مكانة الخطة الجريئة التي ساروا عليها في المعارك السياسية الرنانة التي وقعت في عهدهم . فهو بلا جدال كاتب محمود بالنظر لما يتخلل افكاره من حرية تنطوي على جرأة جميلة ، ولادائه المعاني الجليلة المفرغة في ديباجة ناصعة كاملة ، ولسعة معارفه الدقيقة . واذا ذكر اناتول فلا يذكر الا بالاعجاب والاحترام . وهو ممن رنّ صدى صوته الساحر في القاصية . وربما وضعوه في مكانة عظيمة قد يظن ان التاريخ الادبي لا يقره فيها جملة . وبلغ من الناس بالنظر لما خصت به أقاصيصه من السحر البراق ، ولاحكامه الحرة ولدعابته في نقده النفاق والمظالم الاجتماعية ، ان اصبحوا لا يرون فيما خطته انامله ما كان فيه ناسجاً على منوال غيره مقتبساً عن الكتب على سبيل الذكرى . ولا مراء في ان اناتول قد قيد نفسه في حدود خزائن الكتب اكثر من تقيده بمشاهد الحياة ، فهو نظار في الاسفار اكثر مما هو نظار في الانسان ، هو مبدع في أحاديثه ، رزق ذاكرة مطواعة مجهزة اجمل جهاز علمي ، وكان يطرب في التبسط في ايراد آرائه فيما يقرأه من الاسفار ، وفيما سقط عليه من امور تافهة في ذاتها ، وهو يوردها بأسلوب الحاذق الفنان ، ولذلك فلما كان يهتم ليستمع لما يقال ، او يجول في علم الحال كل مجال . ولما كان يأتي بشيء كان مسمعوه الواقفون على طرطقته في صناعته ، وعلى نظامه في أفكاره ، يتساءلون من اي كتاب مجهول صاد تلك النكتة الشاردة ، وحمل تلك الفائدة الدقيقة يا ترى . وما عدا كتبه التي أوحى بها تاريخ المعاصرين ما كان المعجبون به يبحثون ابداً في سطح هذه الصورة عن كتاباته مهما بلغ من سحرها وجاذبيتها . ولذلك كانوا يدعون ان السخرية البادية في كتبه قد اخذها عن فولتير وعلى طريقته سار وبهديه اهتدى . اما لغته السهلة العذبة فهي لغة احسن كتّاب القرن الثامن عشر اه .

هذان رأيان لاديبين كبيرين من معاصري اناتول وهما احدث الآراء فيه . واذا جاز لمثلي ان يلقي دلوه في الدلاء امام اولئك الفحول ، فانا انظر اليه من الوجهة التي تحدث أفكاره فيمن يطالعها منا مطالعة امعان لا مطالعة تسلية ولفكهة ساعات الفراغ . انظر في تأثيراته بعد الذي نلوته من مجموعة تآليفه التي انتهت اليّ في العام الغابر وهي في اثنين

وثلاثين مجلداً ، وفيها كتابه الذي اسماه (الحياة الادبية) وهو يدخل في اربعة مجلدات عرض فيه لكتاب عصره وأدبائه وشعرائه وقصاصيه وممثليه ، فجاءت في مقالاته عبقة من النقد الشهي نشرها اولاً في جريدة الطان ايام كان يتولى فيها منصب الناقد الادبي . ثم جعلها في مجلدات برأسها على نحو مافعل صديقه من قبل جول ليمتر ، ونشر في الطان مقالات في أدباء عصره ثم كسرها على ثمانية مجلدات وسماها (المعاصرون) . ولهذه المقالات مدين اناتول فيما أحسب بالجزء الاعظم من شهرته الاولى .

والشهرة رأس مال الكاتب في الغرب وكم كاتب لم تكتب له شهرة مستفيضة فبقي ذكره مطوياً عن اهل جيله والأجيال التالية . اما الباقي من أقاصيصه ورواياته فهي المرآة الصقيلة التي تعكس على انظارنا نبوغه وعبقريته تراه تارة يأتي بقصة قد تظنها تافهة بادئ الرأي حتى اذا صرت في تلاوتها شوطاً ورأيت اناتول يحاذيها بدرره الغوالي التي ظفر بها خلال مطالعته وعدّ ذلك (روزفي وكوكونت) المشار اليهما من موجبات مؤاخذته ، تستعظم عمل المؤلف فلا نعرف بماذا نصف قصصه ، اذ تشهده يورد عليك بالمناسبات مسائل اجتماعية وتاريخية واخلاقية وعلمية ومادية ، وسوى أكثر مايكتب ولحنه من هذا الطراز الممتاز ، فهو ملمّ واي إلمام بعامة علوم البشر ، ويعرف الناس من قرب ومن بعد لا كما حاول ناقدوه أن يصوروه ليسلبوه محامده ، و يشوّهوا من طرف خفي محاسنه الحسمة للفكر والنظر ، و يعدوا غرامه في الاخذ عن القدماء واستخراج المدفون من الآراء من أسباب ضعفه ، وربما حسب المتجرد عن الغرض ان ذلك كان من دواعي فخره وعظمته .

الكتاب الجيد هو الذي يقفك على فكرة جليلة ، و يقرب من ذهنك علم مالم تكن تعلم من أيسر سبيل ، لا الذي تنتقل بين سطوره وصفحاته فتحدث لك تلاوته لذة موقتة ثم تنساه او تتناساه بحيث لا يضرك عمله ولا جهله . يختص كل واحد من القصاصين في الغرب اليوم بناحية من نواحي المجتمع الانساني يلونون الكلام فيه ، والقصة عندهم هي الاداة الكاملة التي تفعل في اصلاح الجماعات والافراد فعلاً محمود الأثر في الجملة ، ولكم هذبت من حواشي مجتمعهم وعلمت جاهلهم وأصلحت بما تبث من معوج شؤونهم . اما أقاصيص اناتول فهي الادب السامي والافكار الفلسفية الطريفة ، والحرية المطلقة النادرة ، ولذلك لم ير خصومه او من كان في حكمهم ، الا ان ينالوا منه من ناحية ضعف تخيلها فوصفوه بانه

ماجن ’هن‘أنه هدام للنظم الاجتماعية ، والمنصف يتجلى له في تضاعيف كتب اناتول ان أسلوبه الممتع لا يبلغ عقول من يريد تهذيب عقولهم ان لم يبرز بهذه المظاهر المنوعة العجيبة . ولطالما شوهد كأنه يعبث وهو يجد، وكم تخيل انه يضحك وهو في الواقع يبكي .

للاصلاح طرق وطريقة اناتول راقت البعيد والقريب ، بيد ان القريب قد يبدو منه بعض تأفف لدن سماعها ، لمكان التقاليد والوراثة ، وللحرص الداعي الى الاكتفاء بما علم وتقرر في العرف ، وللكسل المغروس في أغلب الخلق لا يتعبون انفسهم للاجادة في عملهم ويلوكون السنتهم فيمن يستلذون التعب فيه . وهناك شيء آخر يقال له الحسد يأكل قلب صاحبه ، والحسد مسألة المسائل في كل مجتمع ، والحساد يرون ان مما يسكن ثائر نفوسهم ان يطعنوا في مثال اناتول يحطون من ادبه ومكانته لانه ينعم بنعمتهما . وكل ذي نعمة محسود . وما يدريك ان كان معظم الناقدين من الناقمين عليه لذهابه بفضل السبق دونهم ولان منهم من يحاولون الحامة بناتهم الضئيل على حساب مجده المؤثل ، ليوهموا العوام ومن يعلو فوق طبقتهم بعض الشيء انهم سباق في حلبة الأدب ، وان اناتول مهما بلغ من المنزلة وزيد بسطة في العلم لا يتطاول الى مساماتهم ولديهم العلم الجم الذي لا يعرفه ، ومن صحيح الافكار ما انفردت به أذهانهم الثاقبة . وقلما خلا مجتمع من حسد مرمض ، والمعاصرة كما قيل حرمان ، والناس معادن ، والفضل لا يخفى مهما حاول المنطعون ستره . والشهرة ربيبة الدرس الطويل ، والبحث المتواصل ، وقلما سلب دعي شهرة غيره فاستأثر بها دونه ، او كتب له ان يتعدى طوره ، ويخرج عن مقدار حجمه !.

محمد كرد علي

—«*»—

عصر الجاحظ[1]

— ٣ —

« الانقلاب الفكري »

بقي علينا الكلام على الناحية العجيبة من نواحي عصر الجاحظ أي على ناحية استفاضة العلم ، لقد جاءت العربية من هذه الجهة ببرهان بليغ على صلاحها للحيـاة وعلى استعدادها لقبول ما يندمج فيها من صور الفن والعلم ، وأعجب من هذا كله استعداد العرب للدخول في كل طور من أطوار الحياة ، ولا شك في ان التطور من علامات الحياة: ففي أسرع من رد الطرْف نقل معاوية الملك من شكل الى شكل فبعد ان كان هذا الملك مصبوغاً بصباغ بدوي صبغه بصباغ حضري ، كلنا نعلم رغبة امير المؤمنين عمر بن الخطاب في الخشونة سواء أكانت هذه الخشونة في الملابس ام في المآكل ام في المراكب ولكن معاوية لما كان عاملاً لعمر على الشام تلوّن بالوان البيئة اي بيئة الشام فما لبث ان فخَّم ملكه على نحو تفخيم الروم حتى ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبدالرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل اليه فأعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال عبدالرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر فقال : يامعاوية انت صاحب الموكب آنفاً مع مابلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال : نعم ياامير المؤمنين قال: ولمَ ذاك ، قال : لأنا في بلد لانمتنع فيه من جواسيس العدو ولابدَّ لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني بذلك أقمت عليه، وان نهيتني عنه انتهيت فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فانه رأي أريب وان كان باطلاً فانها خدعة اديب

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وما آمرك به ولا انهاك عنه فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ماصدر هذا الفتى ثم أورده فيه . فقال : لحسن موارده جشمناه ماجشمناه [1] » .

ففي زمن غير طويل رتّب معاوية الملك في الاسلام وفي زمن غير طويل ادخلت طائفة من خلفاء بني العباس ميراثنا الادبي في باب لم يدخله من قبل حتى رفل ملك العرب وادبهم في برد لشيب في قرن او في قرنين وما هو قرن وبعض قرن في استيقاظ الامم .

كان الادب قبل بني العباس لايحيط الا باخبار العرب وايامهم واشعارهم وخطبهم وملحهم ونوادرهم واوضاحهم وما شاكل اضراب هذه الامور فكان فيه شيء من الشعور والعاطفة وانما كان يعوزه التبسط في مذاهب الفكر كالفلسفة والرياضيات والسياسة والتوحيد والطب واشباه ذلك فلما جاء ابوجعفر المنصور شرع يحيى بن البطريق وابن جبرائيل الطبيب وابن المقفع وابن ماسويه وسلام الابرش وباسيل المطران في الترجمة فنقلوا الى العربية بعض كتب المنطق والطب ولما جاء المأمون الدائق يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن اسحاق واسحاق بن حنين في نقل الآثار فترجموا كتب بقراط وجالينوس وارسططاليس وأفلاطون .

وقد كان الجاحظ يراقب كل حركة من حركات عصره فلم يغفل عن شيء مما كان يجري في ايامه فكأنه صورة ناطقة تفصح لنا عن أحوال عصره فقد أشار الى التجديد إشارة خفية فقال [2] :

وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ماانتقص شيئاً ... وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان حتى انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

وكما انه لم يغفل عن التلميح الى النقل فكذلك لم يغفل عن التلميح الى الآثار المنقولة فأشار الى كتب إقليدس وجالينوس والمجسطي مما تولاه الحجاج وأشار الى مافي ايدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص ٧) .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص ٣٨) .

وأبواب الاصباغ والعطر والاطعمة والآلات[١] وأشار الى كتاب الكون والفساد وكتاب العـدوى لأرسطاطاليس والى كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون وفلان وفلان وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون[٢] .

ولقد كان يحذر كذب التراجمة وزياداتهم وجهل المترجم بنقل لغة الى لغة[٣] فمن حذره هذا يتبين لنا وجه من وجوه الترجمة في عصره والبكم بعض ماجاء في بعض كتبه من هذا المعنى[٤] .

« ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له : ان الترجمان لايؤدي ابداً ماقال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ويؤدي الامانة فيها ويقوم بمايلزم الوكيل ويجب على المجرى وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها والاخبار عنها على حقها وصدقها الا ان يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابوقرة[٥] وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ولا بد للترجمان من ان يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي ان يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيها سواء عليه ومتى وجدناه ايضاً قد تكلم بلسانين علمنا انه قد أدخل الضيم عليهما لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتأخذ منها وتعترض عليها وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة وانما له قوة واحدة فان تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به اقل كان أشد على المترجم وأجدر ان يخطئ فيه ولن تجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء هذا قولنا في كتب الهندسة

(١) الحيوان (الجزء الاول ص٤٠) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص١٦٧) .

(٣) الحيوان (الجزء السادس ص٩٠) .

(٤) « « الاول ص٣٨ .

(٥) هكذا وردت ولعلها ابن قرة .

والتنجيم والحساب واللحون فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين ۰۰۰ »

هذا ما أبقاه لنا الجاحظ من آثار الاشارة الى الترجمة والى الكتب المترجمة والى التراجمة والى آداب الترجمة في عصره وان هذه الآثار على قلتها لنستطيع ان نتصور أنها ناحية من نواحي الحياة التي عاشتها العربية في ذلك العصر فندرك ان العربية خرجت من شكل الى شكل بدخول عناصر فيها لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل ٠

لاشك في ان الكلام على النقل وعلى الكتب المنقولة في عصر الجاحظ يطول مداه فمن أراد التوسع في هذا فليرجع الى الفهرست لابن النديم والى طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة والى أخبار الحكماء للقفطي ، ولكن كيف كان الامر لانجد لنا مندوحة عن الايجاز في الكلام على هذه الناحية الجديدة من نواحي ميراثنا الأدبي التي طبع بها هذا الميراث بطابع خاص ظهرت آثاره على الفكر العربي حتى مزجوا الادب والدين بالعلم فلبس الادب بهذا المزج لباساً لم يكن له في ماضيه ٠

وقبل الكلام على النقل من اليونانية وغيرها من اللغات لابأس بالاشارة الى ان الجاحظ قد عاش في عصر تم فيه اختلاط العرب ببعض الأعاجم فقد اتصلت باهل هذا العصر أخبار فرق من الاعاجم كالصقالبة والترك والروم والهند وفارس والحبشان والنوبة وأصناف السودان ولباث اليهم اخبار الاكاسرة وعرفوا كثيراً من صفات نساء الروم وفارس والهند واستجلبوا العبيد من السند واشتروا الغلمان للطبخ وربما سموا بعض سككهم باسماء الأعاجم فقالوا : سكة اصطفانوس وربما سمعنا اسماء غير عربية مثل طيمانوا ومنويل وسموعين وتوفيل وميخائيل وغير ذلك وقد خالط بعض اليونانيين العرب في أمصارهم فعرف العرب طائفة من نوادرهم ٠

***

استفاضت الروح اليونانية في آفاق آسية بعد فتوح الاسكندر فأصبحت الاسكندرية زمناً غير قصير ملجأ يلجأ اليه اهل العلم والبحث وأشباه هذه الطبقات من الرجال الذين أبعد غاياتهم تثقيف عقولهم وترويض أذهانهم وعلى الرغم من العوارض التي عرضت لدور الكتب فأدخلت الضيم عليها بقيت طائفة من التصانيف مستفيضة في الناس تدل على ان فكر المتقدمين لايزال حياً ٠

وقد كانت بلاد الشام والعراق داخلة في حضارة يونانية فكانوا في أديرة الرهبان السريانيين ينقلون من اليونانية الى السريانية في احقاب متطاولة كتب فلسفة اليونانيين وعلومهم ، اما تراجمة العرب فقد كانوا في عصر الترجمة يعمدون الى الكتب السريانية فينقلونها الى العربية .

وقد كان المجمع العلمي الذي أنشأه كسرى الاول سنة ٣٥٠ في جنديسابور ينشر في الشرق علوم اليونانيين و يثبّت رغبة القوم في ذوق الفلسفة والطب .

وبقيت مدينة حرّان في بلاد مابين النهرين وثنية فاجتمع آلهة اليونانيين وآلهة رومة الى آلهة الساميين القديمة وكانت حرّان ايضاً في القرون الوسطى ناحية حضارة يونانية فكان اهلها ينصرفون خاصة الى الرياضيات والى علم الفلك .

من هذا كله يتبين لكم ان الثقافة اليونانية هي التي فعلت فعلتها في ميراثنا الادبي وأريد بهذا ان العرب وجدوا في آفاقهم في اول يقظتهم مستودعاً لآثار عقول اليونانيين فاستخرجوا من هذا المستودع ما قدروا عليه .

لا ريب في ان نقل هذه الآثار قد شرع فيه القوم على زمن المنصور وانما المأمون هو اول خليفة في الاسلام كانت له جلائل الآثار في استيقاظ العقول من رقدتها فقد أنشأ في بغداد بيت الحكمة وهو اشبه شيء بجامعات هذا العصر وجعل لها دار كتب ورصدَ فلك فنقلت على ايامه كتب من السريانية الى العربية كانت في الاصل منقولةً عن اليونانية فزادت هذه الكتب في ادبنا النامي الاصول المختلف الأشكال .

ثم نهض المأمون بالمسلمين نهضة لم يقتصر فضلها على العرب وحدهم وانما انتقلت اصداؤها الى آفاق اوربة الراقدة فاستفاقت اوربة من نومها بفضل الاندلس وتلك الايام نداولها بين الناس .

واظن ان الخوض في ذكر ما نقل من الكتب الى العربية يمتد بنا مداه كما قلت لكم وانما اجتزيء بالاشارة الى العلوم التي دخلت العربية حتى امتزجوا طبيعة الطابع الذي طبعت به ثقافتنا فقد نقل العرب كتب افلاطون وارسطاطاليس وبقراط وجالينوس واقليدس وارخميدس وبطليموس وهي في موضوعات شتى في السياسة والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والطب والرياضيات والنجوم واضراب ذلك .

وكان منهم من يذهب الى بلاد الروم فيتعلم اليونانيـة كحنين بن اسحق وهو ابن صيدلاني نصراني من الحيرة فقد سافر الى آسية الوسطى وتعلم اليونانيـة وعاد الى بغداد فكان طبيباً للمتوكل وكتب في الطب والفلسفة ·

انشأت قراءة كتب ارسطاطاليس رغبة في الفلسفة فكانت الفلسفة في المسلمين فاشية في طبقات قليلة من جمهرة المفكرين والعلماء اي لم تستفض في طبقات العامة الا ان رجال الفكر انصرفوا اليها بمجامعهم ·

وقد طبقوا الفلسفة على السياسة فمن أقدم المؤلفـات السياسية التي تشتمل على بعض نظرات فلسفية كتاب « سلوك المالك في تدبير الممالك » لصاحبه شهاب الدين بن ابي ربيع وضعه على ايام المعتصم ومنه نسخة في باريز وقد طبع في مصر ·

ومشت الرياضيات الى جنب الفلسفة لنقل العرب الهندسة الى لغتهم من كتب اليونانيين ولا سيما كتب اقليدس وربما اخذوا الحساب عن الهند ·

اقدم العلماء الرياضيين من العرب انما هو الخوارزمي الذي كان على زمن المأمون فقد طلب اليه المأمون ان يؤلف خلاصة الكتاب الهندي « سدهانتا » ونقلت كتبه في الجبر والحساب الى اللاتينية واستفاضت في اوربة ومن الخوارزمي اشتق الفرنجة كلمة (Algorithme) ·

ثم وضعوا كتباً في النجوم ففي بدء القرن الثالث ظهر كتاب ابي يوسف يعقوب القارشي اما الطب فقد جاء المنصور بطبيبه بختيشوع من فارس الا ان الطب العربي عملت فيه عوامل هندية فكان للرشيد طبيب هندي وهو منكه ·

ومن جندي سابور جاء ابوزكريا يحيى بن ماسويه فكان ينقل عن اليونانية كتباً كثيرة ووضع كتباً من عنده ككتاب نوادر الطب[1] ·

وقد نقلوا ايضاً عن النبطية وعن العبرانية ·

هذه خلاصة النقل في عصر الجاحظ فما اكثر الأفكار الحديثة التي دخلت في ميراثنا الفكري فاستلزمت صوراً حديثة تمثلها للعقول وتقربها من الأذهان فبعد ان كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط الا بما تأتيه الحواس السطح ببعض الشيء عن هـذه المادة وتعلق

(١) ادب العرب للاستاذ هوار (Huart) ص ٢٧٨ :

بالامور المجردة فتغلغل في باطنه فتفكك اجزاء النفس وقواها وحسها وتفكيرها واخلاقها وطمح الى مافوق البشر والى مافوق العالم فنظر في المبادىء والنتائج ونظر في العلل والقوانين ومن عكف على دراسة اللغة وأطوارها في هذا العصر الذي نقلت في خلاله آثار اليونانيين وآثار الهند وآثار فارس وغيرهم من الامم الى العربية لايتمالك ان يدهش لبيان العرب وان يقول : ما أمرن هذا البيان ! وما اقدره على الحياة ! دخلته عناصر لا عهد له بها فقبلها ولم يعجز عن تمثيلها وتصويرها وهنا يظهر لنا سلطان العربية في أوضح مظاهره، فما ضاقت العربية في يوم من ايامها عن تصوير نتائج القرائح وثمرات الخواطر .

والى جنب هذه العلوم التي استفاضت في الجمهور خرافات لا بأس بذكر طائفة منها نقتبسها عن كتب الجاحظ نفسه فكأن العلم لم يفش في الطبقات كلها ، بذكر نبذ من هذه الخرافات تحيط بنا حية من نواحي عصر الجاحظ فكأن الجاحظ لم يغادر لنا شيئاً من عصره تفوتنا معرفته ومن هذا يتبين لكم مقدار تدقيقه فهو الذي نبهنا على كل ناحية من نواحي عصره على حرية الفكر وعلى صلاح الايام وعلى فساد الدهر وعلى كثرة الزندقة وعلى شيوع العلم وعلى ذيوع الخرافات .

فمن هذه المعتقدات جلب الخنافس للرزق قال ابوعثمان[1] :

« سقط الى القابيس ان الخنافس تجلب الرزق وان دنوها دليل على رزق حاضر من صلة اوجائزة او ربح او هدية او حظ فصارت الخنافس ان دخلت في قمصهم ثم نفذت الى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً واكثر ماعندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق ويظن بعضهم انه اذا دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ان ذلك كلما كان اكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها اكثر فانظر أية واقية دائمة حافظة واي حارس واي حصن ان شاء الله تعالى لها بهذا القول واي حظ لها حين صدقوا هذا التصديق والطمع هو الذي أثار هذا الامر من مدافنه والفقر هو الذي سبّب هذا الطمع واجتلبه ولكن الويل لها ان ألحت على غني عالم وخاصة ان كان مع حدوثه وعلمه حديداً عجولاً وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد البطش الملح في ذلك الجهير الصوت الذي تسميه العوام امير الذبان فكانوا يحتالون في صرفه وطرده اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه فانه

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٠٦) .

لا يغير فلما سقط اليهم انه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم صاروا اذا دخل المنزل واوسعهم شراً لم يجبه احد منهم واذا أراد الله عزّ وجلّ ان ينسيء في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما انه اذا أراد ان يقصر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً » .

ومن هذه المعتقدات طول العمر بطول الاذن قال الجاحظ[1] :

« قد سمعت من يذكر ان اذن الانسان دليل على طول عمره . حتى زعموا ان شيخاً من الزنادقة لعنهم الله تعالى قدموه لتضرب عنقه فعدى اليه غلام سعدي كان له فقال : أليس قد زعمت يامولاي ان من طالت أذنه طال عمره . قال : بلى . قال : فهاهم يقتلونك . قال : انما قلت ان تركوه » .

كانوا يعتقدون انه اذا كان في الدار ديك أبيض أفرق لم يدخلها الشيطان ويقولون من اكل لحم سنور اسود لم يضره سحر واذا دخنت الدار بالدخنة التي سموها بدخنة مريم او باللبان لم يكن عليها لعمّار الدار سبيل وان من نام بين البابين تخبطه العمار وخبلته الجن[2] .

والعامة تزعم ان لبس النعال السود يورث النسيان[3] .

وكأن أمثال هذه المعتقدات لم تختص بها العامة وانما لهج بها فريق من العلماء والمؤلفين حتى قال الجاحظ[4] :

« ومما لا اكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها الا كل وقاح الحبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها ويدارس اهل البصرة ويحفظها زعموا ان الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن اسحق : انا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد قال : ومن العفص مايكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثى وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم أخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ماهو أعجب وأطرف وقد ذكرت العلماء الضباع

(١) الحيوان (الجزء السادس ص١١٧) .
(٢) « « الثاني ص ٧٥ .
(٣) « « الخامس ص ١١٥ .
(٤) « « السابع ص ٤٩ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في مواضع من الفيافي لم تر احداً ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به واذا لم يأتنا في تحقيق الاخبار شعر شائع او خبر مستفيض لم نلتفت اليه » .

وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة فقال [1] :

« وزعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره ان يأمر الاسد فيعطس ولما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الايمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤنة الجرذان ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكا الى الله تبارك وتعالى فأمره ان يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤنة رائحة ذلك النجو وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص » .

واذا كانت اشباه هذه المعتقدات نافقة عند اهل الحضر فاستفاضتها في الاعراب اولى فالاعراب لا يصيدون يربوعاً ولا قنفذاً ولا ورلاً من اول الليل وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء . . . فان قتل الاعرابي قنفذاً او ورلاً من اول الليل او بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل إبله ومتى اعتراه شيء حكم بانه عقوبة من قبلهم [2] . وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذا ذنب وان الضب سلبه اياه [3] .

وتزعم المجوس ان سوسن الذي ينتظرون خروجه ويزعمون ان الملك يصير اليه يخرج على بقرة ذات قرون ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود لا يقول : هراً وبراً حتى يأخذ جميع الدنيا [4] .

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ١٠٦) .
(٢) « « السادس ص ١٤ .
(٣) « « الخامس ص ١٥٣ .
(٤) « « السادس ص ١٦٢ .

تحقيق الجاحظ

أفلا يجدر بنا بعد ان أتينا على ذكر عصر الجاحظ ووصفنا أفقاً عجيباً من آفاق ذلك العصر وأريد بذلك استفاضة العلم فأشرنا الى طائفة من الآثار التي اتصلت بميراثنا الفكري فطبعته بطوابع خاصة أفلا يجدر بنا بعد هذا كله ان ننظر في جهة من جهات ثقافة الجاحظ وهي جهة العلم .

انكم لتذكرون ما أثبته لكم في كلامي على اول عهدي بالجاحظ من رأي (رنان) في المسلمين من حيث اهتمامهم بالبحث فقد وقع في خلده ان المسلمين يعتقدون ان البحث لاطائل فيه ولا شأن له .

وقد قلت لكم في حينه ان الجاحظ قد يكون حجة يحتج بها من يريد ان يثبت ان في العرب علماء وانما حصرهم غير عصرنا فلنتفرغ في مجلسنا لتقليب النظر في هذه الحجة أهي قاطعة ام هي غير قاطعة .

كنت أطالع من ايام غير بعيدة كتاب (مفكري الاسلام) لصاحبه البارون (كارا دي فو) Baron Carra de Vaux فانتهيت الى كلام المؤلف على الجاحظ فقد قال[1] :

« اكبر كتبه كتاب الحيوان وهو كتاب جليل أدمجت فيه فصول كثيرة لاتتعلق لها بالحيوانات قد يجمع الجاحظ فيها مايوحيه اليه حيوان من فكرة ومن ذكرى أدبية ومن شعر ومن قصة فاذا شرع القارئ في قراءة هذا الكتاب وفي نيته ان يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه ولكنه اذا قرأ دون غرض من الاغراض منقاداً الى مشيئة المؤلف غير سائله خطة مرتبة فقد يجد فيه كثيراً من لذة البال .

(١) الحيوان (الجزء الاول ص٢٩٦) .

لا أظن اننا نستطيع ان نستنبط من الجاحظ فلسفة اومقاييس ولكننا فدنجدله روحاً فلسفية تنسبط في أعلى هضابها وذوقاً للحياة العقلية يذهب في ابعد مداه » .

يشتمل هذا الكلام على رأيين : رأي في الجاحظ من جهة العلم ورأي فيه من جهة الفلسفة فصاحب هذين الرأيين يجرّد احد كتب الجاحظ من قيمته العلمية تجريداً واضحاً فهو لا يجد في كتاب الحيوان بحثاً علمياً عن اصناف الحيوان وانما يقرّ له بقيمة فنه وهو ما افصح عنه في قوله : قد نجد في كتاب الحيوان كثيراً من لذة البال .

وكا جرّده من فضل العلم فقد جرّده من فضل الفلسفة فهو لا يستطيع ان يستنبط من الجاحظ فلسفة او مقاييس وانما يعترف له بروح فلسفية متسعة الافياء وبحياة عقلية بعيدة المدى .

فلننظر في هذا كله أصحيح ان الجاحظ ليس له اساليب فلسفية في كل مذهب من مذاهب تحقيقه وتدقيقه فهل يدقق ويحقق دون ان يبني على اصول مرتبة وقبل ان أقلب النظر في نفي العلم عن الجاحظ رأيت من الواجب علي ان أبين لكم : من هو العالم وما الفرق بين علم العامة وعلم الخاصة .

عقد الاستاذ (ريشه) احد اعضاء معهد باريز في كتابه (العالم) فصلاً عرّف فيه العالم تعريفاً بيناً ولمح الى ضروب العلماء والذي يستنتج من الفصل كله ان العالم انما هو الذي يتوخى البحث عن حقيقة مجهولة فهو الذي يرمي الى المعرفة[1] .

فالفرق بين علم العالم وبين علم العامي من الناس ان العامة تقتصر على معاينة الاشياء ولكن العلماء يحاولون ان يعرفوا اسباب هذه الاشياء اي ان يعرفوا مبادئها وقوانينها فقد قال ارسطاطاليس : يبتدئ العلم بالعجب وينتهي بضده فالعامة لا تعجب من الاشياء التي تعاينها كل يوم وتقع عليها حواسهم ولكن العلماء يعجبون منها ويجتهدون في البحث عن عللها فهم يريدون ان يعرفوا مثلاً لماذا لا يصعد الماء في جوف المضخة الا الى حدّ معلوم فاذا عرفوا علّة هذا بطل عجبهم وصاروا يعجبون من ضد هذا الامر .

فالعالم في نظر الاستاذ (ريشه) انما هو الذي ينقب عن الحقيقة المجهولة ولكن لكل

(١) الاستاذ شارل ريشه (Charles Richet) كتاب العالم ص ٧ .

علم من العلوم اصولاً في التنقيب عن هذه الحقيقة فلنبحث في صدر الامر عن الاساليب التي يجري عليها الجاحظ في البلوغ الى حقائق العالم وكشف الغطاء عن غرائبه وطرائفه .

يقول ابوعثمان في مقدمة كتاب الحيوان[1] :

« وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم وتتشابه فيه العرب والعجم لانه وان كان عربياً إعرابياً واسلامياً جماعياً فقد اخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة » .

لخص لنا الجاحظ في هذه الاسطر أصوله التي يبني عليها في الوصول الى معرفة الحقائق فهو يستعين بالحواس وبالعقل على إدراك الحقائق .

اما الاستعانة بالحواس فقد أشار اليها في كثير من المواطن فقوله الذي سمعتموه من قبل : ليس يشفيني الا المعاينة داخل في الاستعانة بالحواس والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق في علوم الطبيعة يضم اليه التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف فكل قول في نظره يكذبه العيان فهو أفحش خطأ وأسخف مذهباً وأدل على معاندة شديدة او غفلة مفرطة[2] .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم يقتصر الجاحظ على المعاينة وحدها وانما جمع بينها وبين التجربة في كثير من تحقيق الغرائب في هذا العالم وسأذكر لكم في مجلس آخر أنماطاً من تجربته على أصناف الحيوان ولقد وثق بهذه الطريقة الثقة كلها حتى أصبح لا يجد سبيلاً الى رد الخبر المعروف بتواتره وترادفه الذي حققه العيان وصحت اليه التجربة[3] .

فهو في هذا المعنى اي في الاستعانة بالحواس في التحقيق من اصحاب الفيلسوف (باكون) الذي ظهر من سنة ١٥٦١ الى سنة ١٦٢٦ فقد سعى هذا الفيلسوف في تجديد العقل فحاول ان يصلح مناحي الفكر البشري واساليبه في التحقيق فمن رأيه انه لا ينبغي لنا الاستناد الى المتقدمين لانهم لا يعاينون الامور عياناً كافياً فما ينبغي لنا ان نكون اصحاب أفكار مهيأة

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٥) .
(٢) « « الثالث ص ١١٢ .
(٣) « « الثاني ص ٤٧ .

نؤمن بها فان هذه الافكار انما هي بمنزلة الأصنام فلكل حزب اصنام ولكل مذهب أصنام ولكل عصر أصنام فما ينبغي لنا ان نرى في كل ناحية من نواحي الطبيعة مزاعم فاذا كانت الشمس تدفئ فما يلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتدفئ واذا كانت الارض تغذي فما يلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتغذي فما يلزمنا ان نرى العالم كله متوجهاً نحو الرجل متمماً لخدمته ، يجب علينا ان نلجأ الى المعاينة والى التجربة ثم الى استنباط نتائج عامة من الامور التي نعاينها والامور التي نجربها فالاستنباط مداره الذهاب من الخاص الى العام ومن طائفة من الامور الى وضع القوانين .

هذه فلسفة (باكون) وقوامها : التجربة والعيان ، ولئن لجأ (باكون) الى هذه الفلسفة من ثلاثة قرون فقد لجأ اليها الجاحظ من أحد عشر قرناً الا ان (باكون) توسع في أساليبه فجعل للعيان وللتجربة قواعد عامة فالتجربة في نظره ينبغي لها ان تكون متنوعة ممتدة مقلوبة .

وكأن الجاحظ رأى ان هذه الطريقة وحدها لا تضمن له الافضاء الى الحقائق لان الحواس التي يعتمد عليها في التحقيق قد تخادع في بعض الاحيان فأحب ان يجمع الى معونة الحواس معونة العقل فقال[1] :

« فلا تذهب الى ماتريك العين واذهب الى مايريك العقل وللامور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » .

فكان لا يحمل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار[2] .

فالأدلة والبراهين من أعمال العقل وهذه الطريقة انما هي طريقة (ديكارت) الذي ظهر من سنة ١٥٩٦ الى سنة ١٦٥٠ فان فلسفة (ديكارت) ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق الا ما كان واضحاً ، صدّق ما كان واضحاً فالوضوح انما واصل الامر في اليقين فما ينبغي لقوة من القوى الظاهرة ان يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا وما القوى الظاهرة الا السلطة والاوهام والمصلحة والاحزاب .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص٩٧) .
(٢) « « السابع ص٤١ .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فما أشبه قول (ديكارت) لا تصدق الا ما كان واضحاً بقول الجاحظ : لا أجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ولكن (ديكارت) قد توسط في هذه الطريقة فأنشأ لها قواعد منها تجزئة المصاعب ومنها الذهاب من المبسوط الى المركب وغير ذلك .

الا ان (ديكارت) يشك في كل شيء وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الاحلام ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة فهو يشك في كل شيء فقد يزعم ان العالم لا حقيقة له على امل ان يصل الى حقائق يثبتها العقل فالشك في مذهبه سبيل الى اليقين .

واذا توسعنا بعض التوسع في التنقيب عن مذهب الجاحظ في التحقيق من جهة العقل تبين لنا انه قد يميل الى الشك على نحو ما مال اليه (ديكارت) في العصور الاخيرة وقد يجعل هذا الشك سبيلاً الى اليقين . من ذلك قوله[1] :

وزعم لي ان ابن ابي العجوز ان الدساس تلد وكذلك خبرني به محمد بن ايوب بن جعفر عن أبيه وخبرني به الفضل عن اسحاق بن سليمان فان كان خبرهما عن اسحاق فقد كان اسحاق في معادن العلم وقد زعموا بهذا الاسناد ان الاروية تضع مع كل ولد وضعته أفعى في مشيمة واحدة . وقال آخرون : الاروية لا نعرف بهذا المعنى ولكنه ليس في الارض نمرة الا وهي تضع ولدها وفي عنقها أفعى في مكان الطوق وذكروا انها تنهش وتمض ولا تقتل ولم اكتب هذه للتقوية ولكنها آية أحببت ان تسمعها ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه ، ثم اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات في القوة والضعف ولما قال ابو الجهم للمكي : انا لا أكاد أشك قال المكي : وانا لا اكاد اوقن ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين » .

فقول الجاحظ : اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له يشبه مذهب (ديكارت) في جعل الشك سبيلاً الى اليقين .

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٠) .

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

هذا مذهب الجاحظ في التحقيق في كل امر من امور العلم والدين جمع فيه بين معونة المادة ومعونة العقل فكان هذا المذهب مقدمة للاصول التي بنى عليها (باكون) و(ديكارت) في العصور الأخيرة فالجاحظ صاحب طريقة في تحقيقه ، انكم لا تجهلون قيمة الطريقة في العلوم فقد قالوا فيها انها فن استكشاف الحقيقة فاذا أراد البشر ان يصلوا الى الحقائق لزمهم ان لا يخبطوا خبطاً وان ينهجوا منهجاً قد اختطوه لانفسهم قبل التفرغ للبحث فلا يمكننا الوصول الى الحقائق الا اذا مشينا على خطة معينة اي على طريقة وما يكفينا ان نلجأ الى طريقة ما في دراسة من الدراسات وانما يجب علينا ان نستعمل لكل صنف من الحقائق الطريقة الخاصة بهذا الصنف ففي صنف تحسن التجربة وفي صنف يحسن العقل وفي ناحية تحسن التجربة والعقل معاً فاذا تجرد الفكر البشري من هذه القواعد ومشى دون ان يعرف مبدأ طريقه ومنتهاه او ان يعرف الطريق التي يسلكها أضاع قواه دون ان يصل الى الحقيقة .

والتاريخ يدلنا على ان الفلسفة والعلوم انما وصلت الى ما وصلت اليه بفضل الطريقة وبفضل عبقرية الذين استعملوا هذه الطريقة .

ان واضع الفلسفة وهو سقراط انما هو اول من عاين طبيعة الرجل العقلية وطبيعته الخلقية وطبق هذا العيان على درس النفس وعلى درس الخالق .

واذا تقدمت في عصرنا هذا علوم الطبيعة تقدماً عظيماً فالفضل في ذلك يرجع الى الطرائق التي وضعها (باكون) و(كلود برنار) و(باستور) واستعملها العلماء من بعدهم .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الطريقة وحدها ولكنه احب ان يمزجها بشيء من روعة الفن فما ذكر غريبة من غرائب العالم وطريفة من طرائفه الا ومعها شاهد من كتاب منزل اوحديث مأثور او خبر مستفيض او شعر معروف او مثل مضروب او يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب او من اكثر من قراءة الكتب او بعض من قد دارس الاسفار وركب البحار وسكن الصحاري واستذرى الهضاب ودخل في الغياض ومشى في بطون الاودية [1] .

نعم ، الجاحظ صاحب طريقة في التحقيق ، ومن هذه الطريقة المعاينة والتجربة ومن

(1) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص٥) .

اكبر صفات المعاين التطلع فان هذا التطلع يحملنا على الاهتمام بامور لايكون لها في نظر العامة معنى من المعاني مثل مصباح (غليله) او مثل تفاحة (نوتون) والظن اني لااحتاج الا الى ذكر مثل اومثلين في هذا المعنى ، من ذكرهما تتبين لكم خصائص الجاحظ في حب التطلع والاستشراف فقد يقف على الامور وقوف معتبر و يتأملها تأمل مفكر فاذا اعترض لواحد منها فلايهدأ باله الا اذا نفذ حقائقه وعرف علله وعلم بمقادير قواه ونصرف اعماله وتنقل حالاته . قال ابوعثمان في اثناء كلامه على الفيلة[1] :

« خرجت يوم عيد فلما صرت بفساذ واذا فيل مجلل بمقطوع ومقطعات واذا برجال جلوس عليهم الاسلحة فسألت بعض من شهد العيد فقلت : مابال هذه المسلحة في هذا المكان وقد اختلط الناس بذلك التل ، فقال : هذا الفيل ، فقصدت نحوه ومالي هم الا النظر الى أذنيه وما كانت لي في ذلك علة الا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه وكله كان شاغلاً عن أذنه التي اليها كان قصدي فذكرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لي انه ابتلي بمثلها وأنشد في ذلك بيتين من شعره وهما قوله :

انيت الفيل محتسباً بقصدي لابصر أذنه ويطول فكري
فلم أر أذنه ورأيت خلقاً يقرب بين نسياني وذكري

فهذه القصة على حقارة شأنها تصوّر لنا مقدار ميل الجاحظ الى التطلع فاذا مر بمشهد من المشاهد سأل عنه وقصد نحوه ونظر اليه وشغل قلبه به .

والبكم المثل الثاني وهو ليس بأقل دلالة من الاول على تطلع الجاحظ قال[2] :

« ولقد تنازع بالبصرة ناس وفيهم رجل ابس عندنا أطب منه فأطبقوا جميعاً على ان الجمل اذا نحر ومات فالتمست خصيته وشققتها انها لا توجدان فقال ذلك الطبيب فلعل مرارة الجمل ايضاً كذلك ولعله ان تكون له مرارة مادام حياً ثم تبطل عند الموت والنحر وانما صرنا نقول لا مرارة له لانا لانصل الى رؤية المرارة الا بعد انتفارقه الحياة فلم اجد ذلك عمل في قلبي مع اجتماعهم على ذلك فبعثت الى شيخ من جزاري باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال : بلى لعمري انها لبوجدان ان ارادهما مريد وانما سمعت العامة

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٦١) .
(٢) « « « السادس ص ١٤٩ .

كلة وربما مزحنا بهـا فيقول خصية الجمل لا توجد عند منخره ، اجل والله ما توجد عند منخره وانما توجد في موضعها . وربما كان الجمل خياراً جيداً فتلحق خصيته بكليتيـه فلا يوجدان لهذه العلة فبعثت اليه رسولاً ، انه ليس يشفيني الا المعاينة فبعث الي بعد ذلك بيوم او بيومين مع خادمي لنبس بشقشقة وخصية ، ومثل هذا كثير قد يغلط فيـه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب » .

فانظروا الى مقدار ولع الجاحظ بالتطلع ، يسمع كلام اهل الصناعة على امر من الامور ويجمعون على هذا الامر فلا يعمل الكلام في قلبه فيسأل شيخ الجزارين عنه فيعترف له بصحته ولكن الجاحظ ليس يشفيه الا المعاينة فهذا الافراط في حب التطلع انما هو من صفات العلماء ومن خصائصهم وهل الفرق بين معرفة العالم ومعرفة غير العالم الا في بحث العالم عن كل علة واقتصار غيره على العيان وحده دون الاهتمام بالعلل وبالقوانين .

يقول صاحب كتاب (مفكري الاسلام) لا يجد المرء في كتاب الحيوان مبحثاً علمياً عن الحيوان .

فلنرجع الى كتاب الحيوان فهو الكتاب الذي صور لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر ففي شواهد كثيرة على توخي الجاحظ الوصول الى الحقائق في مباحثه وفيه بيان لمختلف أساليبه في التحقيق وفيه أنماط من نقده العلمي ومن فلسفته العلميـة فضلاً عن قيمته الفنية التي نرجئ الكلام عليها الى حينه وقد الّف الجاحظ كتاب الحيوان وهو ابن سبعين بوجه التقريب اي بعد ان اختمر عقله واستوى فكره واتسعت تجاربه ومعايناته .

فلنستخرج من هذا الكتاب طائفةً من الأقوال ولنحكم على طبائع هذه الأقوال وعلى خصائصها .

من هذه الأقوال مايتعلق بخلق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته ، قال ابوعثمان[1] :

وليس شيء من صنف الحيوان أردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها في الاصل موصولة بكفايات الناس فأسندت اليهم في كل امر يصيبها ولولا ذلك لأخرجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها فاذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ولم يكن ممن يستطيع

كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٢٥) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الانسياب الى جحر أو صدع صخرة او في ذروة جبل وكانت مثل الدجاجة فان اكثرما عندها من الحيلة اذا كانت على الارض ان ترتفع الى رف وربما كانت في الارض فاذا دنا المغرب فزعت الى ذلك وربما كان عند الجنس من الآلات ضروب كجفوز برة الاسد ولبدته فانه حصين للسلاح الا في مراق بطنه فانه من هناك ضعيف جداً وقال التغلبي :

ترى الناس منا جلد أسود سالخ وز برة ضرغام من الأسد ضيغم

وله مع ذلك بعد الوثبة والزوق بالارض وله الحبس باليد وله الطعن بالمخلب حتى ربما حبس البعير بيمينه وطعن بمخلب يساره في لبته. وقد ألقاه على مؤخره فيتلق دمه شاحيا فاه وكأنه ينصب من فوارة حتى اذا شربه واستفرغه صار الى شق بطنه وله العض بانياب صلاب حداد وفك شديد ومنخر واسع وله مع البرثن والشدة باظفاره دق الاعناق وحطم الأصلاب وله انه أسرع حضراً من كل شيء اعمل الحضر في الهرب منه ، وله من الصبر على الجوع ومن قلة الحاجة الى الماء ماليس مع غيره وربما سار في طلب الماء ثمانين فرسخاً في يوم وليلة ولو لم يكن له سلاح الا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه وربما كان كالبعير الذي يعلم ان سلاحه في نابه وفي كركرته والانسان يستعمل في القتال كفيه في ضروب ومرفقيه وركبتيه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه يستوي في ذلك العاقل والمجنون كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب الى الفم والمرأة اذا ضعفت عن كل شيء فزعت الى الصراخ والولولة التماساً للرحمة واستجلاباً للغياث في حماتها وكفاتها او من اهل الحسبة في امرها » .

ومن هذه الأقوال مايختص بتلون كل صنف من الحيوان بالوان بيئته حفظاً لحياته قال الجاحظ [1] :

حدثنا ابوجعفر المكفوف النحوي العنبري واخوه روح الكاتب ورجال بني العنبران عندهم في رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير باعجب صيد زعموا انها اذا انتصف النهار واشتد الحر في رمال العنبر وامتنعت الارض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز او عود ثابت فيجيء الطائر الصغير اوالجرادة فاذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٣٨) .

الحية على انها عود فاذا وقع على رأسها قبضت عليه فان كان جرادة او جعلاً او بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها وان كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله اكلته وانصرفت وان ذلك دأبها ما نعم الرمل جانبه في الصيف والقيظ في انتصاف النهار والهاجرة وذلك ان الطائر لا يشك ان الحية عود وانه سيقوم له مقـام الجذل لحرباه الى ان يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب ان تكون هذه الحية تهتدي لمثل هذه الحيلة وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيوان والعود وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر وصلح ان يكون ملة وموضعاً للخبزة ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات » .

ومن هذا القبيل ما نقله عن صاحب المنطق من ان لكل طائر يعشش شكلاً يتخـذ عشـه منه فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى اختلاف صور تلك القراميص والافاحيص [1] .

ومن هذه المباحث الكلام على تأثير البيئة وقد نقل قول صنف من الناس فقال [2] :
وقال الصنف الآخر لا تنكرون ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضرا وتراها في غير الخضرة على غير ذلك وترى القملة في رأس الشاب الاسود الشعر سوداء وتراها في رأس الشيخ الابيض الشعر بيضاء وتراها في رأس الأشمط شمطاء وفي لون الجمل الأورق ورقاء فاذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فان نصل خضابه صار فيهـا شكله من بين بيض وحمر وقد نرى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء وقد خبرنا من لا يحصى من الناس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٦١) .
(٢) « « الرابع ص ٢٤ .

انهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم أذناب الا تكن كأذناب التماسيح والاسد والبقر والخيل والا كأذناب السلاحف والجرذان فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب وربما رأينا الملاّح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المشوهين والأنباط ويكونون جهالاً فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون فاذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وفي تلك الأذناب وفي تلك الألوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقرود .

وقال في التناحر على الحياة[1] :

ومن العجب في قسمة الأرزاق ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية والحية تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل شيء يكون افحوصه على المستوى والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها .

واذا أردت الافاضة في هذا الباب اتسعت مذاهب الكلام فأقتصر على ما ذكرت دون التعرض لما نبّه عليه الجاحظ في كتاب الحيوان او لما وصفه من غرائز أصناف الحيوان ومن إحساساتها وما شابه ذلك .

أظن أن اشباه هذه المباحث لاتخرج عن العلم وأظن ان الذي يخوض فيها لايعبث انها لم تخل في تضاعيفها من امور جليلة تكاد تكون أجلّ ما اكتشفه علماء الطبيعة في العصور الأخيرة أمثال داروين ولامارك وسبنسر وأضرابهم ، من هذه الامور التناحر على الحياة والتلون بالوان البيئة وتأثير البيئة والارث وغير ذلك فكان الجاحظ يتعرض لأعاجيب الطبيعة ويفكر فيها لان التفكر فيها على نحو ما قال مشحذة للأذهان ومنبهة لذوي الغفلة وتحليل لعقدة البلدة وسبب لاعتياد الروية وانفساح الصدور وعز في النفوس وحلاوة تفتاتها الروح وثمرة تغذي العقل[2] .

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١٠٢) .

(٢) 〃 〃 الثاني ص ٣٩ .

ARCHIVE

ولكن لا ينبغي لنا ان ننسى ان الجاحظ ظهر من احد عشر قرناً وان العلم الحديث لا يتجاوز عمره قرناً ونصف قرن فالجاحظ مشى على آثار ارسطاطاليس وغيره من العلماء اليونانيين في رومة والاسكندرية في تلخيص المعارف فلئن لم يكتشف في علم الحيوان مكتشفات علمية فقد لخص معارف عصره فكتب كتباً علمية في اشياء مختلفة .

فقولنا لانجد في كتاب الحيوان بحثاً علمياً لايخلو من شيء من المجازفة واذا نظرنا في مجلسنا الآتي في أساليب الجاحظ في التحقيق تبين لنا ان الجاحظ لا يلهو وانما يبحث وينقب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحُطَيئة

—«×»—

شاعرٌ مخضرمٌ أدرك الجاهلية والاسلام وعمّر بهما طويلاً ثم ادركته الوفاة وقد بلغ الثمانين · اسمه جرول العبسيّ وكنيته ابو مليكة والحطيئة لقب غلب عليه لقصره ودمامته · وهو احد فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في كثير من فنون الشعر كالمديح والفخر والنسيب · يعدونه في الطبقة الثالثة بين متقدمي شعراء الجاهلية · وهو صاحب البيت المشهور وهو فيما قيل احكم بيت روي عن العرب :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَه ... لا يذهب العرفُ بين الله والناس

ولكنه مع ذلك كان هجّاءً خبيث اللسان دنيء الطبع كثير الالحاف الشعر بقبحه ورثة زيه وسوء نسبه وفساد دينه لم يسلم احد من لؤمه وشره حتى ابويه واهله وذوي قرابته ومما قاله في هجاء أمه :

تنحّي فاجلسي مني بعيداً ... أراح الله منك العالمينا

اغربالاً اذا استودعتِ سراً ... وكانوناً على المتحدثينا

حياتكِ ما علمتُ حياة سوءٍ ... وموتكِ قد يسرّ الصالحينا

وقال في زوجته :

أطوّف ما أطوّف ثم آوي ... الى بيتٍ قعيدته لكاعِ

وقال في ابيه وأمه :

ولقد رأيتك في النساء فسئتني ... وابا بنيكِ فساءني في المجلس

وهو في كل ذلك فذٌّ لا شبيه له ولا مثيل الا الهلالي شاعر حماة وهو من المعاصرين أدركته وعاشرته في مقتبل ايامي وسمعت منه قوله في هجاء أمه :

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تالله لولا الخوف من دعواتها والخاطئات مجابة الدعوات
لهجوتها هجواً أخس من الـ . . . لكن خشيتُ نجاسة الكلمات

وقوله في هجاء ابيه :

لو كان مثلك في زمان محمد ماجاء في القرآن برّ الوالدِ

وهو من امرّ الهجاء وأسوأه كما لا يخفى .

(عود الى الحطيئة) ويستدلون على سوء نسبه انه كان سأل أمه الضراء وهي أمة لأوس بن مالك — عن ابيه فتلكأت وأجابته بقول غير سديد فغضب وخرج عنها لاحقاً باخوته بني الأفقم وفي ذلك يقول :

تقول لي الضسراء لست لواحد ولا أثنين فانظر كيف شرك اولئكا
وانت امرؤٌ تبغي اباً قد ضللته هبلتِ الما تستفق من ضلالكا

وهكذا عاش متدافع النسب . وكان قد أسلم في صدر الاسلام الاول على عهد النبي (ص) فلما كانت الردة على عهد ابي بكر الصديق كان في طليعة المرتدين وفي ذلك يقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثهـا بكراً اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ثم أسلم بعد ذلك نفاقاً ومجاملة وبقي على حالاته الجاهلية حتى مات . قيل التمس يوماً من يهجوه فلم يجد فقال :

ابت شفتاي اليوم الا تكلماً بسوء فلا أدري لمن انا قائله

وجعل يردّده حتى ورد غدير ماء صافٍ رأى فيه وجهه فقال يهجوه :

ارى ليَ وجهاً شوّه الله خلقه فقبّح من وجه وقبّح حامله

وهذا من أعجب حالاته .

وقيل مرّ رجلٌ يعرف بابن الحمامة بالحطيئة وهو جالس بفناء بيته فبادره بالسلام فقال له (قلتَ ما لا ينكر) قال اني خرجتُ من اهلي بغير زاد قال (ماضمنتُ لاهلك مراك وراؤك اوسع لك) . قال افتأذن لي ان استظلّ ببيتك قال (دونك الجبل فهو

يظلك) . قال انا أبن الحمامة . قال (انصرف وكن أبن اي طائر شئت) وهـذا لعمري غاية ماينتهي اليه البخل « وقد رويت هذه القصة مع زيادة قليلة عن ابي الاسود الدؤلي ايضاً » .

قال الأصمعي : لم يأزل ضيف بالحطيئة الا هجاه . وقال عمرو بن العلاء كان الحطيئة متين الشعر شرود القافية وما تشاء ان تطعن في شعر شاعر وجدت فيه مطعناً وما اقل ما تجد ذلك في شعر الحطيئة . وانما أخَّره عن اللحاق بكبار الشعراء واعاظمها سوء اخلاقه وضعة مكانته وقبح هجائه .

قيل أراد يوماً السفر فأتته امرأته براحلته وهي تقول :

اذكر تحنُّننا اليك وشوقنا   واذكر بناتك انهن صغار

فعدل عن رحلته وقال لا سافرتُ بعد اليوم ابداً .

وقيل نزل الحطيئة في سنة ضيقة بني مقلد بن يربوع فمشى بعضهم الى بعض وقالوا هذا رجلٌ لا يسلم احد من بوادر لسانه تعالوا نسأله عما يحب فنفعله به وعما يكره فنجتنبه فأتوا اليه وسألوه فقال لاتكثروا زيارتي فتملوني ولاتقطعوها فتوحشوني ولاتجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم ولا تُسمعوا بناتي غناء شبانكم ففعلوا ما أراد واحتاطوا لذلك كل الاحتياط فلم يجد ما يؤاخذهم به فلما انقضت السنة رحل وهو يقول :

جاورتُ آل مقلدٍ فحمدتهم   اذ ليس كل اخي جوار يُحمدُ

ايام من يردالصنيعة يصطنع   فينـا ومن يرد الزهادة يزهد

ومن اشتهر بهجائه اياه الزبرقان(١) بن بدر وهو احد سادات العرب واعلامها كان النبيُّ ولاَّه عملاً وأقرَّه عليه ابوبكر في خلافته فقدم الى المدينة في سنة مجدبة يؤدي الى عمر صدقات قومه فلقيه الحطيئة ومعه أسرته في بعض الطريق فقال له الزبرقان وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة اين تريد ؟ قال العراق لعلِّي أجد فيـه رجلاً يكفيني مؤونة عيالي في هذه السنة وأصفيه مدحي ابداً . فقال الزبرقان : قد اصبتَ ذلك عندي فسأوسعك لبناً وتمراً وأجاورك اكرم جوار ثم عرَّفه بنفسه وبعث به الى زوجتـه فأكرمته عملاً بوصية زوجها . وكان بغيض بن عامر وعشيرته بنو أنف الناقة يفاخرون

(١) من اسماء القمر

الزبرقان وقومه فلما رأوا منها التقصير بحق الحطيئة بعد ان رأت من دميم خلقه وزري حاله ما رأت اغروه على التحول الى جوارهم كيداً بالزبرقان وحباً بالتمداح فأبى وقال هذا شأن النساء ولست بعاتب على صاحب المنزل فانه برالا من ذنب المرأة . ثم تمادى جفاء المرأة له لبعض الاسباب وألحّ عليه بنو أنف الناقة ان يأتيهم حتى ابرموه فتحول الى جوارهم فضربوا له قبة وزينوها واكثروا له من اللبن والتمر واعطوه كسوة وإبلاً . فلما عاد الزبرقان أخبر بقصته فجاء بني أنف الناقة يعاتبهم ويطلب ان يردوا عليه جاره فأبوا وقالوا انت اطرحته واضعته وهو الآن جارنا . ولما تمادى بين الفريقين اللجاج خيَّروا الحطيئة فيما يريد فاختار جوار بني انف الناقة وقال للزبرقان انني لم أترك جوارك عن سخط وذم فرضي منه وانصرف واخذ الحطيئة يمدح بني بغيض ومن جملة ماقال فيهم :

قومٌ همُ الانف والاذناب غيرهمُ ومن يساوي بانف الناقة الذنبا

وكان هذا اللقب عاراً عليهم فصار من يومئذ فخراً لهم . ثم لم يزالوا يغرون الحطيئة بهجاء الزبرقان ويكثرون له الهبات والوعود حتى هجاه ومن جملة هجائه البيت المشهور :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاستعدى عليه الامام عمر فقال لا أراه هجاك في هذا القول وكان حسان بن ثابت حاضراً فقال له بل هجاه أشدّ الهجاء فاستقدم عمر الحطيئة وحبسه في جب فقال يستعطفه :

ما ذا تقول لأفراخ بذي مرخ زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
القيتَ كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ
انت الامام الذي من بعد صاحبه القى اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدّموك لها لكن لانفسهم كانت بك الأثر

وهذه الأبيات غاية في السهولة والانسجام ظاهر على ديباجتها عدم التكلف .

فرقّ له عمر وأفرج عنه وقيل بل سلمه الى الزبرقان فقاده بعمامته ليعاقبه فاستوهبته منه غطفان . وقيل ان عمر قال له لما أطلقه إياك وهجاء الناس قال اذاً يموت عيالي جوعاً هذا مكسبي ومنه معاشي . فاشترى عمر منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

ولما أدركته الوفاة قيل له اوص يا ابا مليكة فقال ويلٌ للشعر من رواة السوء ثم أنشد قول ضابئ :

لكل جديد لذةٌ غير انني   رأيت جديد الموت غير لذيذ

ولما الحوا عليه بالوصاة وسألوه بما يقول في عبيده. قال هم عبيد انّ ما عاقب الليل النهار · قالوا فبم توصي للفقراء ، قال أوصيهم بالالحاح في المسألة فانها تجارة لن تبور · قالوا فما تقول في مالك ، قال للانثى ضعفا ما للذكر ، قالوا ليس هكذا قضى الله ، قال ولكني هكذا قضيت · ثم طلب بعد حديث لايجدر بنا ذكره ان يحملوه على اتان و يتركوه راكباً حتى يموت زاعماً ان الكريم لا يموت على فراشه ، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون حتى فاضت روحه وهو يقول :

لا أحدٌ ألأم من حطيّة   هجا بنيه وهجا المريّة

من لؤمه مات على فريّة (١)

وهذه الوصية ان صحت فهي دالةٌ على ان الرجل أدركه الخرف في أخريات ايامه حتى لم يعد يعقل ماذا يفعل ، لان المجون لا سبيل اليه ، وشبح الموت ماثلٌ لديه ·

هذا بل مايؤثر عن الحطيئة أثبتناه في هذه الصفحات تفكهةً لقراء مجلة المجمع الذين قلما رأوا بين ثناياها غير الجد والعويص من المسائل ، فما عليهم لو تملحوا منهما الفينة بعد الفينة بامثال فكاهات الحطيئة ونوادره فانه على كل حال يمتّ الينا بنسبة الادب واللغة والشعر فما هو عنا – وان كرّت العصور دونه – بقريب او بعيد ·

عضو المجمع العلمي
سليم عنحوري

---

(١) الفريّة الأتان اي أنثى الحمار ·

آراء وافكار

—«»—

موءلفو الفنون الحديثة

« إزاء كلمات اللغة العربية »

قضيتُ حيناً من الزمن في تصحيح بعض المصنفات العربية الحديثة التي وضعت وضعاً او ترجمت من اللغات الاخرى . ولقد وجدتني وانا أقلب النظر في عبارات المؤلفين إزاء ضربين من الكلم :

(الضرب الاول) كلمات او جمل خولف فيهما الفصيح المألوف من كلام العرب . فصححتها من دون تردد ولا توقف ؛ وذلك مثل كلمات (مخابرة) فقلت مكانها (مراسلة) و (اختصاص) (إخصاء) و (مفاداة او تضحية) — (بذل النفس) او (مخاطرة) و (أشهر سيفه) (شهّر سيفه) و (أعتاد الحرب) (عُدَداً او أعتدة) و (هذا الامر يجلب نظر الدقة) فقلت مكانها (يستدعي الاهتمام او يستميل النظر) و (هذا الامر ذو أهمية) فقلت مكانها (ذو بال او ذو خطر او ذو شأن) الخ الخ .

وتصرفتُ في بعض الكلمات تصرف تجديد في الوضع والاستعمال : فمثل قولهم (قلعه بند) اي السجن داخل أسوار القلعـة . قلت مكانه (سجن مسوَّر) . وأشرت ان تستعمل كلمة (أعفاج) لأمعاء الانسان وسائر أكلة اللحوم . و (مصارين) لأمعاء أكَلة النبات . بدلاً من ان تستعمل (أمعاء) في الجميع الى غير ذلك من الترميم والتجديد . على ان المعروف من مبدإي أنني احب التساهل في الكلمات المعربة والدخيلة . وأفضل استعمالها على إهمالها . وذلك تنمية للغة وتوسيعاً لدائرة التخاطب بها .

(الضرب الثاني) كلمات او تراكيب جرت لدى المؤلفين في الفنون الحديثة مجرى

الاصطلاح والمواضعة بحيث صاروا اذا استعملوها في مواضعها اللائقة بها فهمها الناس بسهولة · وتبادر الى أذهانهم معناها الخاص بها جليًا واضحًا · فلا يترددون فيه · ولا يستزيدون ايضاحًا منه ·

هذه الكلمات الاصطلاحية كثيرة جداً ومتكررة في المؤلفات التي عانيت تصحيحها · وهي — وان كانت عربية المبنى والمادة — محوّلة او محرّفة عما يعرفه اهل اللسان من معناها ·

وقد جرّبت ان استبدل بها كلمات أخرى أفصح منها · واكثر ملاءمة لأوزان العرب ومناهجهم · نزولاً مني عند رغبة المحافظين على الفصيح · المتشائمين بالدخيل — وجريتُ على هذه الطريقة منفرداً من دون ان أطلب موافقة المؤلفين · حتى اذا دروا بالأمر عارضوني · وابوا الا الاحتفاظ بكلماتهم · والابقاء على اصطلاحاتهم ·

واذ ذاك حمي الوطيس واشتد الجدال بيني وبينهم · واحتجوا لأنفسهم بما يأتي :

(١) ان هذه الكلمات والتعابير الاصطلاحية من قبيل (الدخيل) · واللغة العربية كريمة النجر · واسعة الصدر · فهي ترحّب بالدخيل والمعرب متى أنست بهما الافهام · وعذب وقعهما في الآذان · وفي القرآن الكريم والسنة وكلام فصحاء العرب الشيء الكثير منهما ·

(٢) ان هذه الكلمات والتراكيب قد اصطلحنا عليها معشر الكتّاب والمؤلفين في الفنون الحديثة وتواضعنا على استعمالها والتفاهم بها فيما بيننا : فهي من قبيل مصطلحات العلوم الاخرى المتداولة بين أربابها منذ صدر الاسلام الى اليوم : فالمحدثون والمتكلمون والفقهاء والنحاة والصوفية والمناطقة والفلاسفة وعلماء الهيأة والهندسة والكيمياء — كل هؤلاء اصطلحوا او وضعوا كلمات جديدة لمعان حديثة في فنونهم · بل ان الاسلام نفسه اصطلح على كلمات استحدث لها معاني جديدة كالصلاة والصيام وغيرهما · وما زالت هذه الاصطلاحات الى اليوم مقبولة عند المشتغلين بتلك الفنون · ولم يعبها عليهم عائب · حتى ان اكبر كاتب نقّاد في الاسلام (ابن خلدون) أشار الى هذه المصطلحات في مقدمته وسلّمها لاهلها تسليمًا · وهذا ابن ابي الحديد يقول في خاتمة شرحه لنهج البلاغة :

« وقد استعملتُ في كثير من فصوله فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة — ألفاظَ القوم مع علمي بان العربية لاتجيزها نحو قولهم (المحسوسات) وقولهم (الكل والبعض) وقولهم (الصفات الذاتية) وقولهم (الجسمانيات) وقولهم (اما اولاً فالحال كذا) ونحو ذلك مما لايخفى عمن له أدنى أنس بالأدب . ولكننا استهجنا تبديل ألفاظهم . وتغيير عباراتهم . فمن كلّم قوماً كلّمهم باصطلاحهم » اه .

(٣) اننا اذا عدلنا عن هذه الكلمات الاصطلاحية الى غيرها وألزمنا بها الطلاب — أطاعونا قليلاً . ثم خالفونا كثيراً . ولا سيما حينما يحاولون الاخصاء والتوسع في هذه الفنون ويرجعون الى أمهات كتبها في التركية والافرنسية : فان هذه المصطلحات ترجمت عنها حرفياً . فيقعون من جراء تغييرها في حيرةٍ وارتباك .

ثم قال المؤلفون : وبالجملة فان اصطلاحاتنا لنا . لانتعدى فيها مواضعها من فنوننا . واذا كتبنا في غيرها استعملنا التعابير والتراكيب التي يريدها المتشائمون . كما ان المناطقة مثلاً اذا كتبوا في فنهم قالوا (ماهية) و(هوية) . أما اذا كتبوا هم اوغيرهم في الاجتماع والسياسة والأخلاق استعملوا مكان (الماهية والهوية) كلمات (حقيقة . كنه . عين) وماشاء الله ان يستعملوا من الكلمات القاموسية .

فقلتُ لهم : اما انا فأبارك لكم في اصطلاحاتكم هذه . غير ان اخواننا المتشائمين يخشون على اللغة العربية أن تفسد على مدى الزمن بتزاحم هذه الاصطلاحات الكثيرة على أبوابها . وهم يقولون ان اصطلاحات الفنون الحديثة لم يضعها علماء عرب كالذين وضعوا اصطلاحات العلوم القديمة وانما وضعها الأتراك وقلدهم فيها أبناء العرب الذين لم يشتغلوا بحق في اللغة العربية وآدابها . فلا يصح قبول مصطلحاتكم الفنية ما لم يوافق عليها مجمع لغوي عربي .

فأجاب الاساتذة :

ولكن اصطلاحات الفنون القديمة لم يضعها (مجمع لغوي) ايضاً وانما وضعها العلماء الاخصائيون في تلك الفنون . فشاعت وألفتها النفوس . ونحن اليوم قد باشرنا طبع مصنفاتنا واحداً واحداً . ووزعناها على تلاميذنا : ملزمة ملزمة . فارجاء العمل بهذه الاصطلاحات ريثما ينظر (المجمع اللغوي) فيها ويجيزها — من الصعوبة بمكان .

فقلت لهم : لنعرض الامر إذن على أعضاء مجمعنا العلمي · وعلى علماء اللغة في بلاد (الضاد) ولنضع تحت مواقع أنظارهم نموذجات من اصطلاحاتكم هذه · فلعلهم اذا رأوا كثرتها · وعذوبة ألفاظها · وسهولة انفهامها عند اربابها أجازوها لكم · ووافقوكم على رأيكم · ولا سيما اذا رأوا انفسهم تجاه امر واقع · ما له من دافع :

« الهيأة التشريعية » « هيأة المحكمة » « تشكيلات المحاكم » « تعقيبات قانونية » « تطبيق النظام » «التصديق او المصادقة على القرار » «مأمورية» « مسؤولية» «صلاحية» «تعليمات» «مقررات» «اقتراع» «تصويت» « أعمال ادارية » « حاكمية » « تابعية» «ميزانية» « تأمين المنافع الوطنية » « مناسبات دولية » « حكومة محلية » « مؤسسات خيرية » « تأسيس محل تجاري » « فتح اعتمادات مالية » « سد العجز » « المتعهد » «الملتزم» «التحقق» «الرسوم» « بدلات الأعشار » الخ الخ ·

وكل هذه الكلمات عربية الاصل · وقد حوّلها المصطلحون عليها الى معانٍ جديدة حدثت في فنونهم · قالوا : فاذا تكلفنا لهذه المعاني إيجاد الفاظ عربية غيرها اشد انطباقاً على اللغة ومناهجها فقلنا مثلاً :

(طائفة المحكمة او جماعة المحكمة) مكان (هيأة المحكمة)

(أوضاع المحاكم) 〃 (تشكيلات المحاكم)

(حالة الحكومة الحاضرة) 〃 (وضعية الحكومة الحاضرة)

(إلقاء التبعة) 〃 (إلقاء المسؤولية)

(علاقات دولية) 〃 (مناسبات دولية)

(معاهد اجنبية) 〃 (مؤسسات اجنبية)

لو قلنا ذلك وحلا هذا الاستبدال والتغيير في بعض الأذواق فانه لا يحلو في كثير منها · ولا سيما عند الذين الفوا هذه الكلمات وانطبع حسهم اللغوي بطابعها الخاص · مثال ذلك ان فاضلاً من رجال المحاكم يضرب بسهم في اللغة العربية وآدابها وهو جدّ حريص على استعمال فصيحها · كما انه كثير التشاؤم بمعربها ودخيلها — صرّح بان قولهم (عضو دائمي) — وهو ما اصطلح عليه رجال المحاكم — لفيد غير ما تفيده عبارة (عضو دائم)

التي ارادوا استبدالها به · وان كلمة (حقيقة) أو (كنه) لا تفيد نفس المدلول الذي تفيده كلمة (ماهية) · فهو يفضل البقاء على استعمال كلمتي (الدائمي) و(الماهية) الاصطلاحيتين ·

على ان التعابير الاصطلاحية ليست سوى وسائط نقل : تنقل المعاني من نفس المتكلم الى نفوس المخاطبين · فكلما كثرت هذه الوسائط واسرعت في ايصالها وسرت الجوارح على استعمالها — عمت الفائدة · وحسنت العائدة · «المغربي»

—«*ـــــ*»—

كتاب الفلاحة الاندلسية

« وملاحظات الامير مصطفى الشهابي »

اطلعت في « مجلة المجمع العلمي » على بحث عتع للعالم الامير مصطفى الشهابي يتعلق بكتاب (الفلاحة الاندلسية) لابن العوام الاشبيلي وأنعمت النظر في ملاحظاته الدقيقة ومطالعاته الجليلة في وصفه لهذا الكتاب الذي هو من اجل ما كتب العرب في الزراعة فأحببت ان أضم الى هذا البحث الكلمات الآتية :

في شهر يونيو (حزيران) من السنة الماضية (١٩٣٠) كنت في مجريط (مدريد) حيث أقمت مدة اسبوعين في اول رحلتي الى الاندلس · وفي اثناء مقامي بتلك العاصمة ترددت الى المكاتب التي فيها ومن جملتها « مكتبة اكادمية التاريخ » واطلعت فيها على كتب قيمة وقيدت اسماءها ونقلت بعض فصول او بعض عبارات منها على قدر ما سمح لي الوقت ·

فمن أعظم الكتب التي استجلبت نظري كتاب الفلاحة للشيخ ابي زكريا يحيى بن محمد ابن احمد بن العوام الاشبيلي الاندلسي رحمه الله · وكتب أخرى سأذكرها واذكر من بعضها بعد ان أنتهي من الكلام على هذا الكتاب ·

ولم اطلع على النسخة المطبوعة من هذا الكتاب في مجريط وهي التي أشار اليها الامير مصطفى الشهابي ولا علمت حينئذ ان هذا الكتاب كان قد طبع · بل النسخة التي اطلعت

عليها مخطوط يقع في ٨٤١ صفحة و ينقسم الى جزءين · واوله : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على النبي محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه الطيبين وسلم تسليماً · اما بعد فاني لما قرأت من كتب الفلاحة المسلمين الاندلسيين ومن كتب غيرهم من القدماء المقدمين في صنعة فلاحة الارضين المطمئنة كيفية العمل في الزراعة والغراسة ولواحق ذلك وما يتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان ما وصل الي منها ووقفت على ما نصّوه فيها نقلت من عيونها الى هذا التأليف ما ان نظر فيه وحفظ أبوابه وفصوله ومعانيه من يريد ان يتخذ هذا الفن صناعة يصل بها بحول الله الى معاشه و يستعين بها بحول الله على قوته وقوت عياله واطفاله وجد فيه حاجته وبلغ فيه ارادته واستعان بذلك على منافع دنياه ومصالح أخراه بتوفيق الله تعالى اياه اذ بالغراسات والزراعات تكثر بمشيئة الله الأقوات وقيل انه الى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم : اطلبوا الرزق في خبايا الارض ·

وروي عن النبي (ص) : من غرس غرساً او زرع زرعاً فأكل منه انسان او طائر او سبع كان له صدقة · وروي عنه : من غرس غرساً فأثمر أعطاه الله من الاجر بقدر ما يخرج من الثمر ·

روي عن ابن حزم الاندلسي : اعلموا ان الراحة واللذة والسلامة والعز والأجر في اصحاب فلاحة الارض اذا كانت عشرية فقط · وفلاحة الارض هي اهنى المكاسب جملة · انتهى ·

وصاحب هذا الكتاب ينقل كثيراً عن الفقيه الامام ابي عمر احمد بن محمد بن حجاج في كتابه المقنع وهو الذي الفه سنة ست وستين واربعمائة · و ينقل فيه عن الرازي وعن اسحاق بن سليمان وعن ثابت بن قرة وعن ابي حنيفة الدينوري · وقد اخذ ايضاً عن الفلاحة النبطية تأليف قوثامي وهو مبني على أقوال جلة من الحكماء منهم آدم وصغريث و ينبوشاد واخنوخا وماسي ودونا وكامتري وغيرهم ·

واخذ ايضاً عن كتاب الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصّال الاندلسي وهو المبني على تجاربه وعن كتاب الحكيم الشيخ ابي الخير الاشبيلي وهو مبني على آراء جماعة من الحكماء والفلاحين وعلى تجاربه الخاصة وعن كتاب الحاج الغرناطي وكتاب ابن ابي الجواد وكتاب غريب بن سعد وعن حكماء اليونان ·

وقد قسم التأليف الى سفرين الاول في معرفة اختيار الارضين والزبول والمياه وصفة العمل في الغراسة والتركيب والثاني الزراعة وماإليها وفلاحة الحيوان ·

والباب السادس عشر هو في صفة العمل في اختزان الحبوب والفواكه — الغضة واليابسة واختزان التين غضاً و يابساً واختزان التفاح والكمثري والسفرجل والأترج والرمان والإجاص والقراسيا والعناب والبلوط والقسطل والفستق والبرّ والشعير والعدس والفول والدقيق وزرايع الخضر والورد المبيس والورد المقطر وتحليل بعض الخضر واختزانها لتؤكل في غير إبانها ·

والباب الخامس عشر هو في التطعيم وفيه صفات في دس الطيب والحلاوة والترياقات في الأشجار المطعمة وفي القضبان والبقل المغترسة ليؤدي ثمرها طعم ذلك وفوحه وقوته وصفة عمل يصير به لون الورد أصفر ولازورديا ايضاً · وتدبير في الورد حتى يورد في غير ايامه · وتدبير في التفاح حتى يثمر في غير ايامه · وكيف يتحيل في ثمر التفاح حتى يحدث فيه كتابة وتصوير · وصفة عمل في ثمر السفرجل والكمثرى والتفاح والبطيخ والقثاء حتى تتشكل الحبة منها باي شكل احببت · وصفات ايضاً في العنب يطول بها حبه و يصير عنقوده كأنه حبة واحدة ويكون عنقوده فيه حب ذو ألوان مختلفة · وكيفية تدبير غرس العنب حتى يكون حبه دون نوى · وتدبير في شجر التين حتى يكون في الغصن منه حبات تين مختلفة الألوان وحتى تكون التينة الواحدة فيها ألوان مختلفة وكيف ينبت في الخس والسلق أنواع من البقول تجتمع في اصل واحد الخ ·

وفيه في قسم فلاحة الحيوان عن الحيوانات وتربيتها وأنواعها ما لم أره في كتاب آخر انتهى ·

هذا كل ما وجدته في كناشي منقولاً عن كتاب الفلاحة الاندلسية للشيخ ابي زكريا يحيى بن العوام الاشبيلي نسخت ذلك كما تقدم الكلام عليه ولم يتسع لي الوقت ان أنسخ اكثر من ذلك فيما كنت فيه مع ضيق الوقت من التفتيش في خزائن الكتب المختلفة كمكتبة الاسكوريال والمكتبة الملوكية ومكتبة اكادمية التاريخ · وكان مرادي ان انقل مافي كناشي هذا عن هذا الكتاب النفيس الذي لم اجد اوفى منه بعلم الزراعة عند العرب الى رحلتي الاندلسية التي انا مباشر تحريرها ·

قال الامير مصطفى ان دوزي وغيره نقلوا عن هذا الكتاب وانه يعد اكبر معلمة زراعية في القرون الوسطى · ومن الغريب انه قد ذكر مثلي اسماء اكثر الذين اعتمد عليهم ابن العوام من علماء الزراعة الذين سبقوه وانه مثلي قد استغرب فقد هذه الكتب التي لم نجد لها اثراً في الفهارس · ولقد نقل الامير الشهابي بعض أقوال علماء الافرنجة عن كتاب ابن العوام هذا ثم أبدى بشأنه مع اعترافه بجلالة قدر الكتاب آراء سديدة فمما قاله ان ابن العوام وأمثاله ممن الفوا في الزراعة كانوا قليلي الحرص على سلامة لغة مصنفاتهم ثم انهم كانوا يستعملون في بعض الأحايين الفاظاً ومصطلحات لا تجيزها معاجم اللغة وقواعدها · قلت ومن هذه الالفاظ لفظة الغراسة بمعنى الزراعة فقد أجراها ابن العوام مجرى الزراعة والصناعة اي جعلها مصدراً ، والحقيقة انه لم يرد في كتب اللغة ذكر الغراسة بهذا المعنى وانما الغراسة هي الفسيلة التي تغرس كما ان الغراس هو ما يغرس ويأتي ايضاً بمعنى وقت الغرس · وانك لتجد في مثل هذه الكتب الفاظاً ومصطلحات عامية ربما حملهم عليها مراعاة فهم العامة الذين اكثرهم ليسوا لغويين وهم أحوج الى المعنى منهم الى اللفظ · ثم ان الامير يقول ان طبعة مجريط من هذا الكتاب بالعربية والاسبانية مشحونة بالاغلاط المطبعية وهو ادرى بذلك لاني انا لم أطلع على النسخة المطبوعة وانما قرأت المخطوط ونقلت عنه . لكن بلغني ان من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة لندن ونسخة أخرى خطية في المكتبة الوطنية في باريز ونسخة أخرى خطية في مكتبة الاسكوريال ·

وسمعت ان من هذا الكتاب مخطوطاً رابعاً وهذا السماع عن الاستاذ المستشرق هس مدرس الألسن الشرقية في جامعة زوريخ واحد اعضاء مجمعنا العلمي · ولعل هذا المخطوط الرابع هو الذي اطلعت عليه انا في خزانة اكادمية التاريخ في مجريط · ويقول الاستاذ هس ان ترجمة هذا الكتاب الى الافرنسية مشحونة غلطاً لان المترجم كان ضعيفاً في العربية ·

ويقول الأخ الأمير انه مما يلفت النظر ان بعض الذين نقل عنهم ابن العوام كأبي عبد الله ابن الفصال الاندلسي كانوا يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية وهي يناير وفبراير الخ · قلت ان هذا الاستعمال كان عاماً في الاندلس والمغرب ولا يزال الى يوم الناس هذا لجميع إخواننا المغاربة من السوس الاقصى الى طرابلس يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية

وكذلك إخواننا المصريون ، ولم يكن هذا اصطلاحاً جديداً نقلوه عن الاوربيين بل هو اصطلاح قديم عندهم باقٍ من القرون الوسطى وليس من يؤرخ بالاشهر السريانية غيرنا نحن الشاميين ومن الينا . وانا على رأي الاخ الشهابي في وجوب وضع اسماء الاشهر الافرنجية بجانب السريانية بين قوسين . ولقد أورد الاخ كثيراً من الالفاظ التي جاءت في كتاب ابن العوام وفسرها وقابلها بامثالها من مصطلحات اهل بلادنا في معناها ووضع بجانبها ترجمتها بالافرنسية وأورد ابحاثاً لغوية زراعية مماً دلّت على ضلاعته في كل من الفنين اللغة والزراعة .

لوزان : شكيب أرسلان
عضو المجمع العلمي

حول الاكليل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

استفهم العلامة الامير شكيب (١) عن تاريخ الاكليل المدعم المثال بعدان بشرنا بان لديه منه جزءين . وقد علمت وانا بحضرموت سنة ١٣٤٦ هـ ان منه نسخة في خزانة السيد العلامة المرحوم الحبيب احمد بن حسن العطاس العلوي ، فكتبت لحفيده السيد محمد بن سالم بن احمد العطاس فأجابني بكتاب مؤرخ ١٥ رجب سنة ١٣٤٦ بانه لا يوجد في الخزانة غير جزء واحد . ومما اخبرني به هـذا السيد ايضاً انه يوجد بخزانة جده تاريخ يوسف بن احمد الازدي ، و يوسف هذا معاصر لسيدنا الامام المهاجر احمد بن عيسى . وكتاب مصباح الظلام فيمن بحضرموت من العرب وخالطهم من الاعجام للعاملي . وعجائب الزمن في اخبار حضرموت وصنعاء واليمن لابن مطروح الصنعاني . وتاريخ بن عقبة وديوانه . وتاريخ ملوك حمير . وهو غير التيجـان المطبوع بالهند سنة ١٣٤٧ هـ . وقد اخبرني الوالد العلامة المحقق زعيم الرابطة العلوية السيد علوي بن طاهر الحداد انه يوجد

(١) كان استفهام الامير في مقال نشره في العدد ٢٨٧ من جريدة (حضرموت) .

في مكتبة الحبيب احمد بن حسن العطاس نسخة خطية من هذا الكتاب ، ومما يوجد فيها ايضاً تاريخ ابي حسان . وتاريخ عدن وتاريخ بامخرمه كاملاً .

وفي كتاب لي من سيدي العلامة المحقق الوالد محمد بن عقيل بن يحيى العلوي بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٤٩ من عدن ان في خزائنه الخاصة يوجد الجزء الاول من الاكليل وتاريخ زبيد وذيله والشرجي والخزرجي وعنده نسخة من تاريخ ملوك حمير وحجمها تقريباً من نحو ٢٠ — ١٥ سنتيمتر وتقع في نحو ٤٠٠ صفحة ولكن الخط ضعيف ، وعنده نسخة من مقامات السيد باعبود وهي بحجم ملوك حمير . وقد تفضل عليّ سيادة الوالد محمد بن عقيل بهذين الكتابين الاخيرين في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٥ عند عودتي الى الوطن وصدوري بالمكلا لاطالعها غير اني لم اتمكن من المطالعة لمرض المّ بي ولسفري الى الشحر وقد أجر سيدي الوالد محمد بن عقيل كاتباً لينقل تاريخ ملوك حمير للعلامة المرحوم احمد تيمور باشا .

و يوجد عند سيدي الاستاذ الوالد المحقق علوي بن طاهر الحداد جزء من كتاب الاكليل وعلى ما أتذكر انه الجزء السادس وقد استعاره منه الوزير المرحوم السيد حسين ابن حامد المحضار العلوي .

ثم انني أؤيد (حضرموت) فيما اقترحته على عطوفة الأمير من نشر الجزءين من الاكليل والتعليق عليهما لتتضاعف حسنات هذا الأمير الجليل .

صولو (جاوه) : علي باعبود العلوي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الالفاظ التركية

« في لهجة الدماشقة العامية »

أتانا مع البريد كناشة من المقالات المفيدة أصدرتها شعبة المستعربين في المعهد العلمي الفرنسي بدمشق عن سنة ١٩٢٩ فلفت نظري فيها مقالة للاستاذ سوسي E. Saussey عنوانها « الالفاظ التركية في لهجة الدماشقة العامية » أجاد فيها المؤلف كل الاجادة وغلط في بعض الالفاظ على ما أعتقد كما سها عن ذكر الفاظ تركية مهمة يستعملها الدماشقة اليوم ٠

فما غلط فيه :

اولاً الفاظ عربية او معربة موجودة في الأمهات من المعاجم العربية مايرحت شائعة على الألسنة وفي بطون الكتب القديمة والحديثة ولايجوز الظن باننا اقتبسناها من الأتراك العثمانيين او نسيناها حتى أتوا فنبهونا اليها مثل عرصة وبكرة واليوم والشراء وبندق ودبوس وامضاء وفانوس وجورب ومعدن ومرجم وابريق وفرميد وقنبيط (وكذا قرنبيط) وقسط وصراحية وسروال وغيرها ٠

ثانياً الفاظ أعجمية (وخاصة ايطالية) يرجع لأسباب شتى ان العرب (ومنهم الدمشقيون) اقتبسوها عن الفرنج مباشرة قديماً او حديثاً وليس للترك فضل في تعريف العرب بها مثل : بالة ، بطاطا ، بيرا ، بوصلة ، برتقال ، بورصة ، دامة ، فاصوليا ، فانورة ، غارصون ، كستنا (وقسطل وشاهبلوط) غاز ، كديش ، مانيفاتورة، قبطان ، قرصان ، شوال (وجوالق) ، ليرا ، معكرونة الخ ٠

ثالثاً الفاظ لم نسمع بها ولايستعملها سكان الشام اليوم الا اذا تكلموا بالتركية مثل ييش وقونش (من قونشمق) ، گل (من گلمك) وسرابعجي (لأنهم يقولون سرابع) وناكردي (لاقردي) ٠

رابعاً الفاظ غلط في تفسير معانيها مثل : « ديوئك بريسي » فمعناها ديوث ما لارأس الديوثين كما ذهب اليه (ديوثلرك الك بريسى) ٠ والدماشقة يستعملون هذا اللفظ للمعنى الاول دون غيره ٠

ومثل الفشة فهي من الفيء بمعنى الخراج والغنيمة او من الفئة بمعنى النوع لا كما ذهب اليه ·

خامساً الفاظ لم يستعملها الترك الا قبيل الحرب العامة مثل كاتب العدل للنوتير · فهي قد وردت في القرآن وكان الترك يسمون كاتب العدل محرر مقاولات ·

ومن الألفاظ التركية (اوالفارسية المقتبسة عن الأتراك) التي يستعملها الدماشقة ولم يذكرها صاحب المقالة · خوش بوش وطنبرجي ودُرِن (من درآن) ودزكين (ديزكين اي المقود) وهو يدوشن (من دوشمك) وجبرمششخن (من شش خانة) ودربين (منظار ومُدَرْبَنَة) وضاين (من ضايانمق) وآتش (من آتشمق) وبجايج (من بجايش) وبيشروش (من بيش رَوِش) وداكش (من دكشمك) وشو باصي (تصحيف صو باشي) ·

والخلاصة انه ليس من الغريب ان يترك الأتراك هذا العدد من الألفاظ في اللغة العامية الدمشقية بعد ان حكموا الشام بضعة قرون ، على ان هذه الكلمات زال استعمال كثير منها بعد تقلص حكمهم عن هذه البلاد · والباقي على وشك الزوال · ومع هذا لو حسب الكاتب الفاضل في قائمته حساباً مضبوطاً لعدد الألفاظ العربية الأصل والألفاظ الأعجمية غير التركية لوجد ان الكلمات التركية الخاصة فيها عدد قليل لا كبير كما ذهب اليه · ولا أحد يجهل ان الترك لو جرّدوا لغتهم من الكلمات الفارسية والفرنجية وخاصة العربية فان ما يبقى لديهم من الألفاظ لا يعبر عن معان مهمة ·

مصطفى الشهابي

مطبوعات حديثة

—«»—

الاصول العربية لتاريخ سورية

« في عهد محمد علي باشا »

تولى جمعها وضبط قراءتها ووضع فهارسها الدكتور اسد رستم

المجلد الثاني ص ١٧٠

هذا هو الجزء الثاني من الوثائق التاريخيـة التي اخذ السيد رستم على نفسه نشرها، ويحتوي هذا الجزء على الاوراق السياسية لسنة ١٢٤٨ م ٣١ أيار سنة ١٨٣٢ – ٢١ أيار سنة ١٨٣٣ م نشرها بحروفهـا ولكنه عُني بالطبع الجيد بحيث تروق مطالعتها المفيدة للباحث في تاريخ هذه الحقبة كما هي مفيدة في تصور أسلوب الكتابة العربية في ذلك العهد .

م . ك

مختارات بعض زعماء البلاغة العربية العصرية

« الملحق الثاني تأليف السيد طاهر الخميري والاستاذ السيد كامپفماير الالماني »

« ص ٤١ ومثلها بالالمانية »

هذا مختصر فيه كلام على بعض رجال الادب في مصر كطه حسين ومنصور فهمي وعباس محمود العقاد ومحمد حسين هيكل وابراهيم عبد القادر المازني وماري زيادة . وعد المؤلف من جملة أدباء العصر الشاعر ايليا أبوماضي وجبران خليل جبران . نشرت نموذجات من ادب المومأ اليهم بالعربية وجعلت التعليقات والفوائد بالالمانية . وقد قدم الناشر الاستاذ كامپفماير مقدمة لهذا الكتاب قال فيهـا : « فان مجد الشرق لن يقام في

المستقبل على الجديد او القديم وانما على إساس الجيد من الجديد مقترناً بالجيد من القديم وما من جيد الا ماينفع الامة ويطابق الفطرة التي جبلت عليها ... ليزداد الغرب علماً بحضارة الشرق تلك الحضارة التي ليست اقل من حضارة الغرب وان اختلفت عنها » .

م . ك

كتاب نظام الحكومة النبوية

« المسمى بالتراتيب الإدارية »

— جزؤه الثاني —

مؤلف هذا الكتاب (سيدي عبد الحي الكتاني) عضو مجمعنا العلمي من علماء المغرب الاقصى . وقد كان منذ ثلاث سنوات أصدر الجزء الاول من هذا الكتاب مسمى باسم « التراتيب الإدارية . والعمالات والصناعات والمتاجر . والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الاسلامية . في المدينة المنورة العلية » هكذا سمى المؤلف كتابه في الجزء الاول ثم بدا له فأضاف اليه في الجزء الثاني قوله : (نظام الحكومة النبوية) .

ومن عنوانه عرف القارئ غرض المؤلف من تصنيفه : فهو يسوق لنا من نصوص السنة وأخبار السلف مايفيدنا في إصلاح الدنيا وإدارة الملك وسياسة الرعية وكل ما تقوم به الحضارة : من زراعة وصناعة وتجارة — كل ذلك وجد له المؤلف آثاراً في السنة النبوية وأعمال الصحابة . فموضوع الكتاب إذن مادة يستمد منها و يستند اليها العاملون في وضع النظم والقوانين اللازمة للبلاد الاسلامية .

وقد جعل المؤلف كتابه هذا متمماً لكتاب (ابي الحسن الخزاعي) التلمساني (المتوفى سنة ٧٨٩ هـ) فهو يذكر ماقاله الخزاعي مما جاء في السنة المحمدية من الموضوعات العمرانية ثم يعقب عليه بما تناوله اطلاعه الجم . وأحاط به علمه الواسع . وقد كان بحث في الجزء الاول عن أعمال الحكومة : مابين إدارية وكتابية وحربية وجنائية — وجاء بكتابه الثاني

فضمنه مباحث الحرف والصناعات حتى الرقص والغناء والطبخ ولعب الصبيان بالطيور الخ ثم ذكر النصوص التي لها علاقة بالعلم والتعليم · ووصف ما كان عليه الصحابة من استيعاب الفضائل العلمية شارحاً اختصاص كل منهم بنوع العلم الذي امتاز به عن غيره · وهذا الجزء في ٤٨٠ صفحة من القطع الوسط · عدا نحو ٦٥ صفحة مُلئت تقاريظ في مدح الكتاب وتماجيد في مناقب مؤلفه ·

ومن مزايا هذا التأليف بل كل تأليف أُشرق علينا من المغرب ان نعثر فيه على نقول تاريخية ودينية اقتبسها هؤلاء المؤلفون من مصنفات علماء بلادهم (المغرب والاندلس) مما لاعهد لنا بمثله في مصنفات علمائنا وأئمة مشرقنا ·

اما المزية الخاصة بكتاب (التراتيب الادارية) فهو ان مؤلفه اذا خاض بحثاً من مختلف المباحث الاسلامية تراه يتقصّى المصادر والاسفار التي كتبت في هذا البحث : من قديم وحديث و ينفضها نفضاً فلا يدع شيئاً يضيع عليه من نثارتها ·

غير اننا نأسف لما وقع في هذا الجزء من الاغلاط الكثيرة وكنا نحب لو نتزه عنها · ولاسيما ماوقع منها في النصوص الدينية كحديث مزدوع · وقد أُلحق طابع الكتاب به جدولاً للخطإ والصواب بلغ تسع صفحات بخط دقيق · ولا اظنه استوعب جميع ما في الجزء من الاغلاط ·

والمصنف يجيد ايما إجادة في لمّ متفرق الموضوع وسرد النقول المختلفة للاستشهاد له · وتقصّي آراء العلماء والموازنة بينها وتقديم مايراه احق بالتقديم منها ·

ونسمعه احياناً يستشهد بكلام ابن خلدون في (المقدمة) لكنه قلما يسلّم له نظريته بل تراه يرجّح عليها آراء الحشو بين ممن لبسوا من هذه المباحث التي كتب فيها ابن خلدون ولا قلامة ظفر ·

ومعظم ماقرأته في هذا الجزء نصوصٌ وآثار للسلف الصالح يسردها المؤلف · واقوال واختلافات رُويت عنهم : فهو يلخصها او يرويها على علاتها · وقد يعلّق عليها او يجمع بينها بعبارات موجزة من عنده يظهر عليها مسحة من ضعف الاسلوب الانشائي من ذلك قوله في ص ٣٦٣ ·

« المقصد الثاني في ماحازه اصحابه عليه السلام من السبقيات · وما تميز به افرادهم

من علوّ المدارك والكيفيات . ممايعرّفك ان المدينة المنوّرة كانت في الزمن الاول مجموعةً مهولةً بصنوف واختلاف الأعمال والأفكار والصفات . والأشغال الحياتية التي لا بد منها في كل بلدٍ مصر . واتخذت عاصمةً لمدنية عظمى سادت على العالم في القرب وقت . وما وصل اليه ذلك المصر الزاهر . والمصر الطاهر . من الاختلاط والاختلاف في الأحوال . والاتفاق في الآمال . وانه من اندر ما حفظه التاريخ عن الاجيال والدهور » اه .

على ان ماتخلل هذا الجزء من كلام المؤلف قليل جداً كما قلنا آنفاً فيكون الكتاب بهذا الاعتبار فهرستاً عاماً لما ورد في السنّة المطهرة من النصوص المتعلقة بموضوع الحضارة والاجتماع والسياسة والعلم والتعليم والصناعات الخ .

وقد لمحنا ان إخواننا المغاربة ما زالوا على الشنشنة الشرقية القديمة من حيث التهويل في سرد الالقاب والاعتداد بالضخم الرنان منها يظهر ذلك من التقاريظ الكثيرة في آخر هذا الجزء ومما سطّره ناشره على غلافه .

و ياليت إخواننا المغاربة يخففون من هذه اللهجة كما فعل إخوانهم المشارقة . وليدعوا الاعمال تشهد لقائلها . والآثار تنطق بفضل قائلها .

ولعمري ان مطالعة هذا الجزء من كتاب (التراتيب الادارية) تركت في نفسي أثر إكبار للفوائد التي تُلتقط من جوانب كتابه - أمثلَ وأكملَ من الاثر . الذي تركه لقب الشيخ الاكبر . والكبريت الاحمر .

« المغربي »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هدايا كتب

أهدي الينا كتاب (يوبيل لسان الحال) الذهبي وهو يتضمن ما قاله المحتفلون في بيروت بذكرى مرور خمسين سنة على جريدة (لسان الحال) التي هي من أقدم صحف بيروت السياسية ·

— ورواية (من عرابي الى زغلول) وهي رواية اجتماعية تضمنت أبلغ دروس في الوطنية من تصنيف السيد نقولا حداد احد صاحبي مجلة (السيدات والرجال) ·

— وكتاب (الحصاد الاول) وهو يتضمن احدى وثلاثين قصة عراقية وضعها السيد انور شاؤل من أدباء بغداد ·

— ورواية (اليهودي شيلوخ وأقاصيص أخرى) تعريب السيد سامي شمعة وقد انتخبت بمقدمة من قلم السيد كامل عياد · عنيت بنشرها مكتبة عرفة بدمشق ·

— وكتاب (علم الطبيعة) وهو بحث في تطبيق الفروع والمظاهر على الاصل بقلم السيد نجيب شعبا · وقد طبع بالمطبعة التجارية بمصر · والكتاب مقدم الى (فرانسا) إقراراً بجميلها ·

«المغربي»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النقد التاريخي

« وعروبة آل معروف »

—*—

نقل المؤرخ الاستاذ فليب حتّي في كتابه عن الدروز جميع ماخلط الخالطون من الافرنج وغيرهم في اصل هذه الفرقة وجرى هو نفسه مجرى بعض مؤرخي الافرنج ولم يرد تعليلاتهم الكثيرة التي لا تزيدها كثرتها الا فراغاً والتي رسمتها الكبرى وعلامتها الفارقة ان يجتهد المؤرخ بكل قدرته في الاتيان برأي طريف لم يكن موجوداً والاطلال على عالم العلم بنظرية جديدة غير مسبوقة .

ولعمري حسنٌ جداً ان يدقق المؤرخ في كل رأي يطلع عليه وان لا يقبله بالغاً ما بلغ من الشهرة الا بعد تمحيص تطمئن به نفسه وتحقيق يصل به الى برد اليقين . ولكن قبيح جداً ومضرٌ بالعلم جداً ومغرّر بالمتعلمين ان تدور جميع اجتهادات الباحث حول نقطة الاتيان ببدع والسبق الى رأي لم يقل به احد او تقوية رأي ضعيف .

مخالف لشروط العلم على الاطلاق ان يتعمّد الباحث المستطلع مخالفة الرأي المشهور لانه مشهور ومحاولة كسب الشهرة باحداث رأي جديد يقوم مقام القديم . قد تقع هذه الامور موقع القبول في الازياء والألبسة والمساكن والمطاعم والمشارب وغيرها من ضروب المعيشة وترتاح الانفس الى التغيير وتتلذذ بالمعاقبة والمداولة وتملّ من الشكل الواحد بدون انقطاع وتسأم الذوق الواحد بلا تنوع ولا تصرف و كل هذا معقول ومقبول وطبيعي و بشري ولكنه لا يجوز في الحقائق العلمية . حقيقةٌ من الحقائق التاريخيـة مثلاً تكون مقرّرة على وجه من الوجوه بعد استيفاء شرائط البحث فيها وانطباقها على المتواتر بين الناس والمنقول من الخلف عن السلف والمأثور في الكتب المعهود باصحابها الاطلاع وتأيدها بالقرائن القوية

كالسنن والاخلاق والعادات والمذاهب والمشارب ونأتي فنتعمد نقضها تعمداً او نحاول ان ننقصها من أطرافها تحكماً لمجرد مللنا من تواتر القول بها وتبرمنا بتوالي الخلق على نقلها او لاجل الاتصاف بسلامة الاختراع واحراز شهرة الابتداع · هذا خلق لايجوز في العلماء ولايحسن ان يفشو في دوائر العلم · فالاختراع جميل في الطبيعيات والكيمياء والعلوم المادية · والتسابق في ميدان التغيير والتنويع والتنافس في الاتيان بالشيء الذي لم يعهده الناس من قبل كل هذا لذيذ ومفيد وقد يكون ضرورياً لاجل المجتمع الانساني · ولكن اختراع الآراء التاريخية حباً بجدة الآراء والبحث عن خبر جديد نأتي به ولو لم يركب في عقل ولا نقل ولو بدء ولو كان متداعياً بمجرد النفخ كل هذا ولوعاً منا بالاطراف والابداع هذا جناية على العلم ·

ولست أقصد بهذا الوصف كتاب الاستاذ حقي الذي ليس له فيه شيء من هذه الآماد البعيدة في حب الطرافة · وانما اقصد بعض الشرقيين الذين أولعوا بهذا المشرب السقيم زاعمين انه منزع تحقيق سار عليه علماء الافرنج وانهم انما يقلدونهم فيه · وانا أحذر الدكتور حقي من ان يسلك هذا الشعب السحيق الذي يجل عن مثله · فمنزع التحقيق هو منزع التحقيق وافق الرأي القديم ام خالفه لايبالي بما يجيء في طريقه · وانما الذي نحذر الناس من التهافت عليه هو منزع الاغراب حباً بالشهرة وتعمداً لمخالفة الجمهور وجعل «التحقيق» مرادفاً «للاغراب» والحال انه ليس التحقيق إغراباً ولا الاغراب تحقيقاً · فان الاغراب هو ان يأتي الانسان بامر غريب قد يكون صحيحاً في نفسه وقد يكون خطأ او كذباً · وان التحقيق هو ان ينجهد الانسان جهد طاقته و ينتهي في البحث الى الغاية فإما ان يصل الى تأييد ما كان مقرراً سابقاً واما ان يصل الى نقضه واما ان لا تطمئن نفسه الى القديم ولكنه لايجد من الأدلة مايكفي لهدمه فيختار الوقوف · وليس الوقوف بعيب اذا لم تتوافر الأدلة ولم تُفد القطع وانما العيب هو القول بلا علم والجزم بدون جازم والهجوم بدون سلاح ·

واما ان الافرنج إجمالاً يحبون هذا المشرب الشاذ فليس بصحيح · فالافرنج كالشرقيين فيهم المحقق الممحص الذي اذا استوفى البحث شروط الصحة جديداً كان الحق ام قديماً اخذ به وعوّل عليه · وفيهم المولع بالابداع والاطراف ولو كان إبداعه واهياً وإطرافه سخيفاً · ولقد اتسعت مدنيتهم وتشعبت ثقافتهم الى حد ان كثرت عندهم الغرائب وفشا

الشذوذ وملوا النظريات القديمة بصرف النظر عن صحتها وعدم صحتها . ولكن العلماء المحققين منهم لايزالون يميزون بين الصحيح والفاسد من المباحث واذا جاء مؤلف او مؤلفون فكتبوا ماينفي وجود المسيح مثلاً لم يتلقوا أدلتهم بالتسليم لمجرد انهم أتوا بادلة وقرائن وامائر واشارات تجعل لهذا القول وجهاً ، بل وازنوا بينها وبين الأدلة والقرائن والنصوص الواردة على مجيء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فوجدوا أدلة الايجاب أمتن جداً من أدلة النفي وحكموا بان مجيء المسيح حقيقة وعلموا انه اذا كان الحكم للمرجوح على الراجح بطل التاريخ وارتفع العلم من الارض .

فأما مايكثر فيه خلط الافرنج الى الحد الذي لايتصوره العقل احياناً وما يبلغون منه الدرجة التي تضحك وقد تبكي وقد تثير الغضب ومن اي الجهات جاءها الانسان وجدها مصيبة من المصائب — فهو كلام الافرنج عن الشرقيين : ولا اقول اني قرأت كل ما كتب الاوربيون عن الشرق والشرقيين وأحطت بهذه المسألة علماً ولا احد يقدر ان يدعي هذه الاحاطة .

ولكني قرأت بدون شك في هذا الباب مايندر ان يكون تيسر مثله لغيري وصار لي الحق في ان أدلي برأيي في هذه المسألة . فأقول ان خلط الغربيين في كلامهم عن الشرقيين زائد جداً و يكاد يكون عاماً لمؤلفيهم الى انه صار الاسترسال الى أقوالهم في احوال الشرق والشرقيين عبثاً . ولقائل ان يقول : اني أراك مبالغاً او جائراً في الحكم أفهؤلاء العلماء المنقبون الذين فتحوا مغلقات الألسن الشرقية القديمة وحلّوا طلسمات الآثار العتيقة التي كان الشرقيون لا يعرفون منها شيئاً وأفاضوا أشعة تحقيقاتهم على التاريخ القديم سواء عن مصر او عن فلسطين او عن فينيقية او عن جزيرة العرب او عن بابل ونينوى الى غير ذلك حتى جلوا منه تلك الصفحات التي لم يكن شرقي يعرفها من قبلهم — تعدّهم انت من الخلاطين الذين لايؤخذ بكلامهم ولا يوثق بسبيل أقلامهم ! فأجيب على ذلك : حاشا ان أقصد ذلك فيما يتعلق بالتواريخ القديمة والخطوط الهيروغليفية والمسمارية والآثار الحفرية التي صارت فناً من الفنون اتقنه الافرنج وكشفوا به مخبآت عظيمة واضاءوا به ظلمات من التاريخ الشرقي لاشبهة فيها . ولكني أقصد ذلك فيما يتعلق بتواريخنا العصرية واحوالنا الاجتماعية ومانعرفه نحن جيداً ونقدر ان نميز به الصحيح من الفاسد وما هو واقع تحت

حواسنا اومتواتر خبره عندنا · ففي هذه الامور نجد خلط المؤلفين الاوربيين بحراً عباباً وعجباً عجاباً ونجد المعصوم منهم أقلهم خلطاً وأندرهم خبطاً · ولعلهم يخبطون ايضاً في مباحثهم عن اللغات والخطوط الشرقية القديمة ويخطئون في نتائج تنقيباتهم عن الآثار الحفرية الاركيولوجية في كثير من الامور الا اننا في هذه قل من يقدر منا ان يجاذبهم الحبل ويقنعهم بخطإهم لانهـا علوم قديمة عادية دهرية استوى أمامها الشرقي والغربي وصارت بعيدة عن الجميع لنأيها في ظلمات القدم فلم يزد الشرقي بها علماً كون تلك الآثار هي في بلاده اذ كانت نسبتها من آلاف من السنين قد انقطعت وعلاقتها بالحاضر كادت تكون معدومة · فصار الاوربيون اعرف بها من الشرقيين ولو كان هؤلاء جيرانهـا لان مدنيتهم صارت ارقى من مدنية الشرقيين · ولما كانت المدنية تقتضي البحث والاستطلاع كانوا هم اجدّ وانهض للبحث وارغب في التنقيب واملك لوسائله · فعلى كل حال اصبحنـا لانقدر ان نجاريهم في هذا المضمار وان وجد منا من يعرف هذه العلوم فيكون قد اخذها عنهم وتخرج فيها عليهم ·

ولكن ليس الشأن كذلك في التاريخ الاسلامي مثلاً لاننا نملك من وسائل معرفته تواتراً ونقلاً وخطوطاً ونقوشاً وآثاراً مالا نحتاج فيه اليهم بل ما لا يملكونه هم ثم لاننا عائشون في ثمته مندمجون في ضمنه نقدر ان نفهم منه مالا يفهمه الغرباء عنا مهما اجتهدوا في تفهم تاريخنا · وليس الشأن كذلك في امورنا الاجتماعية وخططنا الجغرافية وأحوالنا الاحصائية التي نحن بها أدرى من الغريب لاننا نشاهدها كل يوم ونعرف منها مالا يعرفه الاوربي وان علا كعبه في العلم · فاذا ضلّ الاوربي في ظلمات تاريخ الشرق القديم فلا نحسن ان نردّه الى الصواب كما اذا ضلّ في تاريخ الحقب التي بعد الاسلام او اذا أخطأ في أوصاف الحالات التي نحن عليها الآن ·

ففي هذه نحن نملك من أسباب العلم ما يحصل لنا به برد اليقين ونقـدر ان نبين الحق من الباطل ونفرق بين الحالي والعاطل · ومن جراء هذا تقضي العجب العجاب من شطط اكثر الاوربيين الذين يتكلمون عنا ومن تعسفهم الطرق ومن بنـائهم على التخيلات والتخرصات ومن تعلقهم باسباب واهية يخرجون منها الى إطلاقات عجيبة غريبة ومن أخذهم بمقدمات غير ثابتة ومن افضائهم منها الى نتائج فظيعة · وقد ثبت لنا بهذا ان الراقي

في العلم لايمكنه ان يكون راقياً في كل علم وان الاعتقاد باحاطته ضرب من الجنون .

ويجوز ان يكون الاوربي اليوم في ثقافته ارقى من الشرقي على وجه الاجمال لكن هذا لايستلزم ان يكون أعلم من الشرقي في كل شيء ولا ان يكون اعلم من الشرقي بنفسه . ومن هنا جاء خطأ بعض الشرقيين الفظيع في تقديس معارف الغربي في كل شيء وتلقي كل مايحكم به قضايا مسلمة حتى فيما هو نفسه لايدعي فيه العصمة وحتى فيما هو نفسه يدعو الناس الى ان يصححوا كلامه . فتجدهم يكابرون انفسهم فيما هو واقع تحت حواسهم نظراً لكون احد مؤلفي الافرنجة قال خلاف ذلك .

وبعد هذه المقدمة أقول ان كثيرين من كتّاب الافرنج هم منشئون او ممن تسهل عليهم الكتابة في موضوع اجتماعي اوسياسي او في رحلة الى بلد من البلدان يصف بها الافرنجي مارآه وماارتسم في مخيلته . ولكن ليس كل كاتب منهم عالماً ولامحققاً ولامتخصصاً في الفن الذي يكتب فيه . والحال اننا نحن الشرقيين قد تلقينا كل افرنجي تقريباً عالماً وصرنا نستشهد باقواله . ثم تلقينا كل عالم منهم متخصصاً حتى لو كان مقتصراً على مجرد المشاركة في الفن الذي استشهدنا فيه بكلامه . ثم تلقينا كل متخصص منهم معصوماً وقلنا لاسمه السجود . فهذا كله عبث وغير لائق بالعلم بل ضلال والضلال لايغتفران . فالناس يجب ان ينظروا الى القول لا الى القائل ، وماذا يهمني القائل اذا كان افرنجياً وانا أرى خبطه بعيني وألمس خلطه بيدي ؟ أأجعل كل كاتب من الافرنج عالماً وكل عالم عبارة عن انسيكلوبيديا وسعت كل شيء علماً وكل انسيكلوبيديا معصومة من الخطأ تنزيلاً من حكيم حميد ؟ الم قرأنا الانسيكلوبيديا الاسلامية — التي لم تتم — ووجدناها من أنفع الكتب وهي محررة باقلام نخبة من المستشرقين الذين هم أعرف الافرنج بامور الشرق والعالم الاسلامي لكننا عندما عرجنا فيها على الموضوعات التي نقدر ان نفرق فيهـا بين الحق والباطل رأينا فيها خطأ كثيراً .

واذا جئنا نستشهد على خطلهم في الكلام علينا وعلى الشرق أجمع حفيت الأقلام وضاقت بالشواهد الأجلاد الضخام . ولا يسلم من هذا العثار في امور الشرق احد من مؤلفيهم ولو بلغ من العلم ارفع الدرجات . وقد يقال لي : أفترى الشرقيين في امور الشرق أسد منهم رأياً وأصح معلومات ؟ فأجاوب :

اولاً ان غلط الشرقي سهل تداركه لانك بمجرد ما تقول للشرقي القاري' ان فلاناً الشرقي المؤلف اخطأ في كذا تلقى كلامك بالقبول او بالميل الى القبول وذلك لانه متهافت بطبيعته على تصديق مايعزى من الخطإ الى ابن وطنه اوجلدته . فأما اذا قلت له ان المؤلف الافرنجي فلاناً اخطأ لم يمكنك ان تقنعه بسهولة . وان كان الافرنجي المؤلف مشهوراً لم تجرّ الشرقي الى التسليم بخطإ لابجبال ولا برجال . وما هذا الا لما وقر في صدور الشرقيين من تقديس علم الافرنج والمبالغة في تنزيههم عن الخطإ حتى في الامور التي نحن أدرى منهم بها فعلاً . واقول ثانياً ان الشرقيين في تاريخ الشرق بعد الاسلام أدرى و ز كن من الغربيين بلا نزاع .

كثير من المؤلفين الاوربيين اذا عثر على حادثة واحدة جرّد منهـا قاعدة ! فاذا اتسق له العثور على حادثتين او ثلاث ظن انه اختزن الحقائق كلها في جيبه . والحال ان الجزئيات لابد من ان تبلغ عدداً لا يكاد يحصى حتى تجرد منها قاعدة كلية . فاذا تساوت الجزئيات في السلب والايجاب لم يمكن تجريد قاعدة كلية منها وتحتم الوقوف حتى تبرز الحقيقة بوجه من الوجوه اذ يكاد يكون من المستحيل خفاء الحقيقة الى الابد . وعلى كل حال الواقعة الواحدة والاثنتان والثلاث لايبنى عليها حكم ولا يستنبط منهـا من العلم الا بقدرها . وهذا مالايريد الافرنجي ان يفهمه اذا خاض في معامع البحث عن الشرق . فهو كلما وقع على حدث حاول ان يستخرج وان يستنتج وسبح في بحر الخيال ، وصل الى نتائج ما أنزل الله بها من سلطان .

وعند الاولاد لعبة يسمونها « الغمّيضاء » يعصبون عيني احدهم ويختبأون كل واحد في زاوية ويدور هو والعصابة على عينيه فيبحث عنهم بيده ويتلمّس من هنا ومن هنـاك حتى يعثر على احدهم . وكثيراً ما تقع يده على حجر اوشجر اومتـاع من الامتعة او حيوان مربوط فيظن انه امسك واحداً من رفاقه المختبئين ويهتف صائحاً : هوذا انا قدامسكتك ! ولا يكون امسك احداً . وهذا النفر من الافرنج يبحث عن قضية لا تجلى له فاذا لاحت له لائحة مها كانت ضعيفة ظن انه قبض على مفتاح السر فيها وهتف : قد انكشف لي المغلق . او كلما رأى شعباً من الشعاب اعتقد انه هو الطريق المؤدية الى المقصد وصاح : هذه هي المحجة !

وكم مؤلف منهم يبني تاريخاً طويلاً عريضاً على لفظة . وقد تكون محرفة او مصحفة او مصادفة . فهل يبني العاقل تاريخاً على مجرد كلمة ؟ يأتي الفرنجي فيقول مثلاً ان الدروز هم من بقايا الصليبيين وان اسمهم مشتق من اسم الكونت «درو[1]» Dreux الذي كان من غزاة الصليبيين ونحن ننشر هذه السخافة ونرفع هذا الرأي الى درجة الآراء ولا نبالي باضاعة وقت الناس في اقرائهم سخافات كهذه . . . وياليت شعري ماذا وجد في الدروز مما يشبه الافرنج الصليبيين أسحنهم ام الوانهم ام تركيب رؤوسهم ام اخلاقهم ام عاداتهم ام لفظهم بالعربي الفصيح الذي لايساويهم فيه احد من جميع سكان سورية ؟ وكيف امكن ان يتحولوا هذا التحول العظيم من افرنج صليبيين الى عرب اقحاح ؟ ومتى وقع هذا التحول واين وأنى وهل كان الدروز موضوعين في علبة او في صندوق محكم الاقفال حتى تحولوا من افرنج الى عرب وهم بهذه السواحل الشامية وعرضة للتفتيش والبحث والنظر ولم يشعر بذلك احد من سكان هذه السواحل لامن مسلمين ولامن نصارى ولامن يهود . والدروز مع ذلك مختلطون بجميع هذه الطوائف وما كانوا لهم لاتقع عندهم صغيرة ولا كبيرة الا كان خبرها عند جيرانهم والمقيمين من هاتيك الطوائف بين اظهرهم . ومما لامرية فيه ان تحول قوم من الاقوام عن جنسيتهم ولغتهم وعاداتهم واخلاقهم واندماجهم في أمة أخرى يقتضي اوقاتاً وآماداً متطاولة ولا يحصل في زمن قصير فكيف جرى هذا الحادث العجيب الذي لايتم الا في القرون بدون ان يشير اليه مؤرخو الاسلام ولامؤرخو الافرنج انفسهم ولامؤرخو الموارنة الذين هم اكثر الطوائف اللبنانية اختلاطاً بالدروز . فلا ابن الاثير ولا ابن خلدون ولا ياقوت الحموي ولا ابو الفداء ولا ابن عساكر ولا الذهبي ولا ابو شامة صاحب الروضتين ولا ابن شداد ولا ابن العديم ولا ابن خلكان ولا ابن قاضي شهبة ولا العمري ولا شمس الدين ابن طولون ولا الصلاح الصفدي ولا النجم الغزي ولا شيخ الربوة ولا المحبي ولا احد ممن كتبوا عن سورية اشار الى حادث كهذا مع انهم نقبوا عما هو اصغر منها كثيراً . واغرب من هذا ان مؤرخي لبنان الذي فيه الدروز لم يشموا أدنى رائحة لامر كهذا فلا السمعاني ولا الحاقلاني ولا جبرائيل القلاعي ولا الدويهي ولا ابن اسباط ولا صالح بن يحيى ولا الصفدي مؤرخ الامير فخر الدين بن معن ولا طنوس الشدياق ولا بطرس البستاني ولا غيرهم ذكر ان الدروز هم من بقايا الصليبيين او انهم

منسوبون الى الكونت درو[(١)] .

فاذا كانت المشابهة في لفظة واحدة تجعلنا نقلب التاريخ رأساً على عقب ونضرب صفحاً عن جميع تلك الادلة المحسوسة فماذا أبقينا للعوام من الشرقيين والجهلاء من الحشوة الذين يقولون لك ان اسم حلب الشهباء اصله ان ابراهيم الخليل كانت له بقرة شهباء يحلبها ويجود بلبنها على الفقراء فيجتمعون عليه واذا حلبها قالوا : حلب الشهباء . فمن هنا جاء اسم حلب الشهباء ! او ان طبرية اصلها من ان ملكاً كان عنده ابنة اسمها « ريّا » وكانت عليلة فأرسلها تستحم في الماء السخن الذي على شاطئ بحيرة الجليل فنالت الشفاء فقالوا : طابت ريّا . ومن هناك جاء اسم طبرية ! او ان حاصبيا اصلها من ان فتاة رأت اباها قد حار في امره فأخذت تعول وتقول : حاص أبيّا . فصارت حاصبيا وهلم جرّا . ولم ينحصر هذا البناء على مجرد المشابهة في اللفظ في العوام وحدهم بل تجد منه عند الخواص ايضاً او عند من يصح ان يقال لهم « عوام الخواص » لان في الخواص عوام ايضاً .

ففي جبل لبنان يرون ان اسم « الشوف » مشتق من كلمة « شُف » فعل امر من « شاف » اي رأى بحسب لغة العامة . وذلك بزعمهم ان الجد الاعلى للامراء المعنيين

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) من عادتي اني اذا عربت عن الافرنجية كلمة فيها eu كلفظة Dreux مثلاً أعربها بالواو وأضع فوق الواو الفاً صغيرة لانها بالافرنجية واو مائلة الى الفتح . واذا كانت لفظة فيها u كلفظة Rhur مثلاً او Ziurich أعربها بالواو وأضع فوق هذه الواو ياء صغيرة لانها واو مشوبة بياء كما يعرف ذلك من يعلم اللغات الاوربية . وان كانت لفظة فيها واو شديدة الضم اي هكذا ou كما لو قلت Atnfou او Toulon مثلاً أكتبها هكذا « طولو » مع واو صغيرة فوق الواو . واما الواو التي في مثل Rome و Lausanne مثلاً فأعربها بالواو المعتادة هكذا «رومة» و «لوزان» وهذا التفريق بين الواوات الافرنجية مهم لانها اربعة أشكال كل منها يلفظه الافرنج بشكل خاص فواو طولون الاولى غير واو رومة . وواو لوزان غير واو مونترو . وواو زوريخ غير واو مونترو وغير واو لوزان . وعليه لزم ان يجعل لها فوارق في العربي حتى تلفظ بالعربي كما تلفظ بالافرنجي .

عندما قدم الى جبل لبنان يريد ان ينتجع منه محلاً لنزوله كانت الجهات التي تسمى اليوم بالشوف الحيطي والشوف السويجاني — واصلها الشويزاني — خراباً تجاه الامير المعني الى عبيه من ناحية غرب لبنان نزيلاً على الامير التنوخي واستشاره في المكان الذي يوافق نزوله فيه فيقال ان الامير التنوخي صعد به الى الجبل الذي فوق عبيه الذي يقال له «المطيّر» والذي منه تظهر من الجهة الشرقية بعقلين ونواحيها ودلّه باصبعه قائلاً له «شُف» فصارت «شوف» .

وما أرى شيئاً من هذا وانما ارى اللفظة آرامية او فينيقية معناها «الاجرد» لان جميع صرود لبنان يقال لها «الجُرد» بضم الجيم جمع أجرد . ويجوز ان تكون هكذا بالعربية ايضاً لان فعل «شاف» معناه بالعربي جلا وصقل و «الشَّوْف» بفتح اوله هو الجلو والصقل وكله يتضمن معنى «الجَرْد» بفتح اوله . فالجَرد في العربي هو قشر العود او نزع الشعر ومكان جَرِد لا نبات فيه . وكذلك المكان الجَرِد بفتح اوله وكسر ثانيه الذي لا نبات فيه . وايضاً المكان الاجرد الذي لا نبات فيه وجمعه «الجُرد» بضم اوله كما يتلفظ به اهل كسروان والمتن والغرب والشوف جميعاً . والجرّاد هو الذي يجلو آنية النحاس اي المعروف عند العامة «بالمبيّض» فأنت ترى ان الجرد والصقل والجلو كله بمعنى واحد ولذلك يكون «الشوف» بمعنى «الجرد» واذا رأى الانسان من بعيد رؤوس تلك الجبال وأسنادها وجدها جرداء صلعاء كأنها مجلوّة . وهذا هو الاقرب في اصل هذه اللفظة . وفي الافرنسية لفظة Chauve «شوف» هي بهذا المعنى ايضاً اي أصلع .

ومن هذا الضرب مايقولون في مدينة حماه عن محلة اسمها «الحاضر» فيها مساكن الاشراف بني الكيلاني . فيروون انه لما قدم جدهم من العراق مختاراً الاقامة بحماه أشار عليه ملك تلك البلدة بالنزول في المكان الذي يقال له «الحاضر» في الوقت الحاضر وقال له «هذا الحاضر» اي اسم فاعل من حضر ضد غاب . اي انزل بهذا المكان فهذا الذي يحضرنا الآن وفيما بعد نفكر . وهذا كلام عامي ، والاصح ان الحاضر كان من قديم الزمان محلة عامرة بحماة وهو اسم فاعل من الحضارة لا من الحضور . والحاضر في اللغة الحي العظيم . وقال الجوهري : هو جمع كما يقال سامر للسمّار وحاج للحجاج ومنه «كان ينام خارجاً عن حاضره وكان الحاضر اذا أتاهم الفزع صاحوا» .

وفي حلب حاضر ايضاً كما في حماه ، ولكن حاضر حلب قد صار اليوم خراباً ، واما حاضر حماه فقد قال فيه ياقوت الحموي : « وبظاهر السور حاضر كبير جداً فيه اسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهر العروف بالعاصي » الى ان يقول : « ويقال لهذا الحاضر السوق الاسفل لانه منحط عن المدينة ويسمون المسوّر بالسوق الاعلى » .

ومن هذا القبيل تأويل عامي رأيته في «صبح الاعشى» مع فضل صاحبه وسعة اطلاعه ولكن علماءنا في الأغلب لا يخرجون عن دائرة العربية فكل مغلق يفسرونه بها . وهذا التأويل الغريب في صبح الاعشى هو قوله ان لفظة «تركمان» اصلها « ترك ايمان » لان الترك تركوا دينهم القديم وأسلم منهم مائتا الف في يوم واحد . فجعل لفظة « ترك» من فعل «ترك» العربي وهو غريب جداً . وجعل لفظة «مان» محرفة عن «ايمان» وهو لا يقل عنه غرابة ولم يفكر في ان تلك الامة لها لغتها القديمة ولها الفاظها وان الفاظها لا تؤوَّل بالعربية وان معنى «مان» Mann باللغات الآرية هو رجل وان هذا الاسم «تركمان» اي رجل تركي قد يكون اطلق عليهم في فارس ولا يوجد ضلالة مدحاض في العلم اكثر من تشابه الالفاظ لانها تتشابه كثيراً بين لغات مختلفة وفي وسط اللغة الواحدة . فاذا أردنا ان نستخرج من تشابه كل لفظتين تاريخاً لم نعرف الى اية سخافة بعيدة يؤدي بنا ذلك . وقد سمعت ان اديباً تركياً نشر في الاستانة مقالة يزعم فيها ان التورانيين اي الاتراك كانوا من قديم الدهر في سورية وفي فينيقية واستدل على ذلك بلفظة «ارواد» اسم هذه الجزيرة التي هي قصد طرابلس . وقال : هـذه محرفة من «اروات» واروات محرفة عن « اورت» او «عورت» وهي « المرأة » بالتركي . ومن هنا تحقق ان هذه البلدان كانت تركية ! حقاً ان هذه من أعاجيب العصر . وهي لا تقل في الغرابة عن كون الدروز أصلهم من الافرنج الصليبيين بدليل انه وجد في الصليبيين من اسمه « درو[1] » .

ومن أهم واجبات العالم ان لا يتهافت على الاخذ باول دليل والحكم بموجبه فقديضل ضلالاً بعيداً ويندم او يصبح سخرة ومضغة في الافواه . وهذا مما يقع فيه مؤلفو الافرنج كثيراً عندما يتكلمون عن العرب والشرقيين . وسترى انهم خلطوا بين تنوخ وتنوخ من جراء اتحاد الاسم . وتابعهم في ذلك الاستاذ حتي . وظنوا جميعاً ان الامراء التنوخيين أمراء الدروز في لبنان هم من تنوخ القبيلة المؤلفة من ثلاث قبائل التي يقال انها تحالفت

على المقام بمكان بالشام او على «التنخ» وهو الاقامة بالمكان فجاء من ذلك اسمها «تنوخ» وقد قيل فيها انها نزار وأسد وغطفان ، وقيل بل هي الضجاعمة ودوس الذين تنخوا بالبحرين . وذهب ابو الفداء الى انهم من جرم واسمه علاف بن زبان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة من العرب القحطانية . ونقل علي ظريف الاعظمي البغدادي في كتابه «تاريخ ملوك الحيرة» ان تنوخ فرع من قضاعة من القحطانيين هاجروا من اليمن مع من هاجر من اليمانيين بعد انفجار سد مأرب مما سموه سيل العرم وذلك في أوائل القرن الثاني للميلاد ونزلوا البحرين وزعيمهم يومئذ مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . قال : ولما نزل بنو قضاعة بالبحرين نزل معهم الأزد مهاجرين ايضاً وزعيمهم مالك بن فهم بن غانم والتفت حولهم القبائل اليمانية من بطون نمارة بن لخم وغيرهم من بني قحطان . ووافق خروج هذه القبائل اليمانية خروج قبائل من ولد اسماعيل فرقتهم الحروب فلجأوا الى البحرين وانضموا الى اليمانيين . ولما اجتمعوا بالبحرين اتفق الزعيمان زعيم قضاعة وزعيم الأزد على التعاضد والتناصر وتحالفوا على التنوخ اي المقام فسموا تنوخاً من ذلك الحين الى آخر ما قال .

والحاصل ان مؤرخينا اتفقوا على قصة «التنوخ» هذه مما يطول بنا استقصاء رواياته واتفقوا ايضاً على ان قضاعة من قبائل تنوخ هاجرت من البحرين الى العراق وذكروا ان مالك بن فهم زعيم قضاعة صار ملكاً على العراق وسميت دولته بدولة آل تنوخ واستمرت نحو ١٣٠ سنة واستفحل شأنها كثيراً في زمن جذيمة بن مالك بن فهم الملقب بجذيمة الوضاح عدو الزباء ابنة عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي ملك الجزيرة ومشارف الشام . وانه بعد ان غدرت الزباء بجذيمة وقتلته اخذاً بثأر ابيها انتقل ملك الحيرة من آل تنوخ الى آل لخم لان جذيمة لم يعقب ولداً فورثه في الملك ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي وكانت لاعقابه دولة من أعظم دول العرب اسمها دولة المناذرة . وعظمت الحيرة في زمانهم كثيراً . وقد انقرضت هذه الدولة بظهور الاسلام وفتح خالد بن الوليد للحيرة . وجملة ملوك الحيرة ٢٤ ملكاً منهم ثلاثة من التنوخيين وستة عشر من اللخميين وخمسة من الدخلاء الذين كان يوليهم الاكاسرة من وقت الى آخر في اثناء غضبهم على اللخميين ومدة الجميع ٤٩٤ سنة .

وقد ثبت انه بعد زوال ملك المناذرة هاجرت أفخاذ من تنوخ ولخم الى الشام واوطنت

الجهات الشمالية من سورية كالمعرة وقنسرين واللاذقية وكان الغالب عليهم النصرانية . ثم اخذوا يدخلون في الاسلام . وجاء في «فتوح البلدان» للبلاذري وهو من أوثق ما ألف في فتوحات الاسلام يروي عن ثقات حديثي العهد بالفتح ان اباعبيدة بن الجراح بعد فراغه من ارض اليرموك سار الى حمص فاستقراها . ثم الى قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهل مدينة قنسرين ثم لجأوا الى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم ابوعبيدة على مثل صلح حمص وغلب المسلمون على ارضها وقراها وكان حاضر قنسرين (اي المدينة) لتنوخ منذ اول ما أقبلوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل . فدعاهم ابوعبيدة الى الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . فحدثني بعض ولد يزيد بن حنين الطائي الانطاكي من أشياخهم ان جماعة من اهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة امير المؤمنين المهدي (خلافة المهدي من ١٥٨ الى ١٦٩) فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين » .

ثم ذكر البلاذري نقلاً عن هشام بن عمار الدمشقي عن يحيى بن حمزة عن ابي عبدالعزيز عن عبادة بن نسي عن عبدالرحمن بن غنم ان هذا قال انهم رابطوا مدينة قنسرين مع السمط او قال شرحبيل بن السمط فلما فتحها أصاب فيها غنماً وبقراً فقسمها فيهم وجعل بقيتها في المغنم وكان حاضر طيء قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين (أظنه يريد أجأ وسلمى جبلي طيء) من نزل منهم وتفرق باقوهم في البلاد فلما ورد ابوعبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية . ثم اسلموا بعد ذلك بيسير الا من شذ عن جماعتهم . وكان بقرب مدينة حلب (وهذا الذي سبق لنا الكلام عليه) حاضر يدعى حاضر حلب يجمع اصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم ابوعبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك فكانوا مقيمين وأعقابهم به الى بعيد وفاة امير المؤمنين الرشيد (مات الرشيد في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣) ومن تنوخ هؤلاء ابوالعلاء المعري الضرير الفيلسوف الكبير والشاعر الشهير والمفكر المنقطع النظير وهو احمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن احمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن انور بن اسحم بن ارقم بن النعمان بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة .

ومنهم أمراء اللاذقية ممدوحو ابي الطيب المتنبي . ومنهم سراة وأعيان وعلماء وفقهاء لا يأخذهم الاحصاء في المشرق والمغرب وليس هنا موضع هذا البحث .

واما الأمراء التنوخيون الذين كانوا في بيروت وغرب لبنان فليسوا منهم . وانما اتحاد اسم تنوخ هو الذي خبّى على الاستاذ حتي وعلى من اخذ عنهم من الافرنج حقيقة الامر . فالتنوخيون اللبنانيون ليس لهم نسب الى تنوخ قضاعة . وانما هم بحسب ماينسبهم الناس وماينسبون أنفسهم من لخم لامن تنوخ الذين كانوا نصارى وأسلمت منهم جماعات في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد العباسيين . وصالح بن يحيى المؤرخ احدهم الذي عاش في أواسط القرن التاسع للهجرة يسميهم « أمراء بني الغرب » نسبة الى الغرب المقاطعة التي كانوا يسكنونها من لبنان وهي مقاطعة الارسلانيين ايضاً كانت مقسّمة بين الفريقين . وماقيل لهم تنوخ الا نسبة لاحد اجدادهم تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن لخي بن تميم بن نعمان بن المنذر بن ماء السماء . وهي ماوية بنت عمرو لقبت بماء السماء لجمالها . والمنذر بن ماء السماء المذكور هو ابن امرئ القيس بن النعمان الاعور بن امرئ القيس المحرق بن عمرو بن امرئ القيس الاول بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم بن عدي بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد ابن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . هكذا كما جاء في تاريخ صالح ابن يحيى ونقله عنه ابن سباط العاليهي ونقل عن هذا الامير حيدر الشهابي والشيخ طنوس الشدياق وغيرهم . واذا كان الاستاذ حتي لا يسلم بهذه النسبة الواردة في تاريخ صالح بن يحيى وغيره من تواريخ لبنان ولا يجدها دليلاً كافياً فليس لدينا دليل آخر يثبت عكسها ولا حجة على ان الامراء التنوخيين اللبنانيين هم من تنوخ قضاعة . والتواريخ لاتبنى على الظنون ولا على الخرص والحدس . وغاية مايقال ان في تاريخ صالح بن يحيى أغلاطاً . وربما لم تكن هذه النسبة كلها ثابتة بالتسلسل الذي هي عليه فإن هذه السلاسل القديمة وان كانت متواترة فإنه قد تواتر الخلاف ايضاً في كثير من رجالها . حتى ان النبي عليه الصلاة والسلام لما وصلت سلسلة النسب العدناني الى درجة معينة وقف وقال : كذب النسابون .

وسنسوق الى القارئ نسبة ملوك المناذرة كما هي واردة في تاريخ ابي الفداء وفي تاريخ

جرجي زيدان وفي تاريخ علي ظريف الاعظمي وفي تاريخ صالح بن يحيى التنوخي وفي سجل نسبنا الأرسلاني وتقابل بينها لنظهر ما بينها من الفروق التي وجودها لا ينفي صحة النسب من حيث الجملة • فان الاختلاف في بعض التفاصيل مع الاتفاق من حيث المجموع يزيد الثقة بدلاً من ان ينقضها او ينقصها •

كنت أرسلت الى الأخ المؤرخ المحقق سليمان بك ابي عز الدين المقابلة في سلسلة المناذرة بين سجل النسب الأرسلاني وتاريخ صالح بن يحيى التنوخي وتاريخ ملوك الحيرة لعلي ظريف الاعظمي البغدادي • فأرسل هو بالجدول الآتي • فوجدت مفيداً ان انقله :

« ملوك الحيرة اللخميين »

(ابو الفدآء)	(جورجي زيدان)	(علي ظريف الاعظمي)
عمرو بن عدي	عمرو بن عدي •	عمرو بن عدي
امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس الاول بن عمرو
عمرو بن امريء القيس	عمرو بن امريء القيس	عمرو بن امريء القيس
اوس بن قلام العمليقي	اوس بن قلام	اوس بن قلام
ملك آخر من العماليق	لم يذكره زيدان	ولا الاعظمي
امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو
النعمان الاعور بن امريء القيس	النعمان الاعور بن امريء القيس	النعمان الاعور بن امريء القيس
المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان
الاسود بن المنذر	الاسود بن المنذر	الاسود بن المنذر
المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر
لم يذكر احداً	النعمان بن الاسود	النعمان بن الاسود
علقمة الذميلي (لخمي)	علقمة ابو يعفر	علقمة بن مالك الذميلي
امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان
المنذر بن امريء القيس	المنذر بن امريء القيس	المنذر بن امريء القيس

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(ابو الفداء)	(جرجي زيدان)	(علي ظريف الاعظمي)
الحارث بن عمرو بن حجر الكندي	الحارث بن عمرو بن حجر الكندي	الحارث بن عمرو بن حجر الكندي
عمرو بن هند	عمرو بن هند	عمرو بن هند
قابوس بن المنذر	قابوس بن المنذر	قابوس بن المنذر
لم يذكر	فيشهرت او زيد	فيشهرت او زيد
المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر
النعمان بن المنذر	النعمان بن المنذر	النعمان بن المنذر
اياس بن قبيصة الطائي	اياس بن قبيصة الطائي	اياس بن قبيصة الطائي
زادويه بن ماهان الهمذاني	زادويه بن ماهان الهمذاني	زاديه او زاودويه بن ماهان الهمذاني
المنذر بن النعمان بن المنذر المغرور	المنذر بن النعمان المغرور	المنذر بن النعمان

هذه سلسلة الملوك اللخميين مع ذكر الذين تولوا خلال بعض فترات بامر الاكاسرة من غير ابناء البيت المالك . اما نسب الملوك اللخميين بحسب الاب والجد فينبغي ان يكون هكذا :

المنذر المغرور وهو المنذر الخامس	من سنة	٦٢٨	الى سنة	٦٣٢
بن النعمان ابي قابوس وهو النعمان الثالث	من سنة	٥٨٥	الى سنة	٦١٣
بن المنذر الرابع	〃	٥٨٢	〃	٥٨٥
بن المنذر الثالث الذي أمه ماء السماء	〃	٥١٤	〃	٥٦٣
بن امرئ القيس الثالث	〃	٥٠٧	〃	٥١٤
بن النعمان الثاني	〃	٥٠٠	〃	٥٠٤
بن الاسود (واما المنذر الثاني فهو اخوه)	〃	٤٧٣	〃	٤٩٣
بن المنذر الاول	〃	٤٣١	〃	٤٧٣
بن النعمان الاول الاعور	〃	٤٠٣	〃	٤٣١
بن امرئ القيس الثاني	〃	٣٨٢	〃	٤٠٣

بن عمرو الثاني	من سنة ٣٣٨ الى سنة ٣٧٧
بن امريء القيس الاول المحرق .	« ٢٨٨ « ٣٣٨
بن عمرو الاول بن عدي اللخمي	« ٢٦٨ « ٢٨٨

فاذا نظرنا الى تاريخ صالح بن يحيى التنوخي نجده يذكر نسبهم الذي تقدم لنا سرده على ان جدهم تنوخ هو ابن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن لحي بن تميم ·

بن النعمان
بن المنذر الذي أمه ماء السماء
بن امريء القيس
بن النعمان الاعور
بن امريء القيس المحرق
بن عمرو
بن امريء القيس الاول
بن عمرو بن عدي اللخمي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فهكذا يكون نقص من السلسلة المنذر الرابع الذي يأتي قبل المنذر الثالث الذي أمه ماء السماء · ويكون النعمان الأعور هو النعمان الثاني ابن امريء القيس مع انه بحسب التواريخ الاخرى هو النعمان الاول · و يكون نقص امرؤ القيس الثاني وعمرو الثاني · و يكون نقص ايضاً الاسود بن المنذر الاول · اي اربعة أجداد ·

واما في سجل النسب الارسلاني فالترتيب هو هكذا : ارسلان بن مالك بن بركات ابن المنذر بن مسعود بن عون ·

بن المنذر المغرور (هو هنا الثالث لا الخامس)
بن النعمان ابي قابوس (هو الثالث)
بن المنذر (هو هنا الثاني)
بن المنذر الذي أمه ماء السماء (هو هنا الاول)
بن امريء القيس (الثالث)

ابن النعمان الاعور (الثاني)
بن امرئ القيس (الثاني)
بن النعمان (الاول)
بن عمرو (الثاني)
بن امرئ القيس (الاول)
بن عمرو بن عدي اللخمي (الاول)

وهذه السلسلة تنقص اثنين عن سلسلة الاعظمي ليس فيها الاسود بن المنذر الاول ولا المنذر الاول ولكنها تجعل النعمان الاعور هو الثاني لا الاول كما هو في سلسلة الاعظمي · فهي من هذه الجهة متفقة مع سلسلة صالح بن يحيى · ولكنها تختلف عنها في ان سلسلة صالح بن يحيى ليس فيها الا منذر واحد وهو خطأ فظيع اذ لو لم يكونوا اكثر من واحد واثنين ما قيل لهم «المناذرة» · واما في سلسلة الاعظمي فالمناذرة خمسة منهم المنذر الثاني اخ للاسود بن المنذر الاول فيكون المناذرة الذين على عمود النسب اربعة · واما في سلسلة السجل الارسلاني فالمناذرة الذين على عمود النسب هم ثلاثة فقط · اما المنذر بن مسعود بن عون فهو ليس من ملوك الحيرة بل من أعقابهم الذين كانوا في الشام · وفي سلسلة صالح بن يحيى لا يوجد الا اثنان ممن اسمه النعمان احدهما ابو قابوس والآخر الاعور · واما في السجل الارسلاني فهم ثلاثة ابو قابوس فالنعمان الثاني الاعور فالنعمان الثالث وهذا كما في سلسلة الاعظمي والسلاسل الاخرى · وفي نسب عائلتنا ان النعمان الاعور تزهد وترك الملك وهو كما في تاريخ ابي الفدا وتاريخ الاعظمي · وفي سلسلة صالح بن يحيى ثلاثة اسمهم امرؤ القيس · وفي سجل نسبنا كذلك · وفي تاريخ ابي الفدا وتاريخ الاعظمي كذلك · وفي الجميع اثنان اسمهما عمرو · وهناك اختلاف في نسب ماء السماء أم المنذر الثالث التي لقبت بذلك لحسنها وجمالها واسمها الاصلي ماوية · ففي تاريخ ابي الفداء انها بنت عوف بن جشم · والاعظمي يقول انها بنت عوف بن جشم بن النمر بن قاسط · وصالح ابن يحيى يقول : « لقبت بذلك لجمالها واسمها ماوية بنت عمرو » ولا يرفع اكثر من ذلك وفي سجل نسبنا : « ماء السماء ماوية بنت ربيعة التغلبي اخت كليب والمهلهل لقبت بذلك لصفاء نسبها او لنقاء لونها » فهنا ايضاً اختلافات في الرواية لكنها لا تبطل النسبة من حيث

العموم وانت لا تكاد تقرأ سلسلة آباء واجداد خصوصاً قبل الاسلام الا وجدت الروايات فيها متباينة اما بكثير واما بقليل . ويظهر من كلام صالح بن يحيى الذي ينقله عن شيوخ اهله انهم اي الامراء التنوخيون ينتسبون الى تميم بن النعمان ابي قابوس بن المنذر . ولكنه لا يذكر شيئاً عن كيفية مجيئهم من الحيرة الى غرب لبنان ولا شيئاً من خبر تميم هذا ابن النعمان . ولم نجد في الكتب المشهورة ذكراً لولد من اولاد النعمان ابي قابوس اسمه تميم غير ان هذا لا يمنع صحة الخبر لان الكتب المشهورة من كتب التاريخ لا تذكر كل شيء وكثيراً ما تُغفل اسماء اولاد ملوك كانوا في زمانهم اعظم من النعمان بن المنذر . وقرأت في سجل نسبنا انه مرَّ بسواحل الشام محمد بن احمد بن ابي يعقوب بن هارون الرشيد العباسي . وانه نزل عند احد اجدادنا الامير النعمان بن الامير عامر بن الامير هاني الارسلاني وانه كان معه زوجه وبنوه . فأقام عنده زمناً غير قليل . وكان محدثاً عالماً فروى عنه جماعة من الامراء وغيرهم . ثم خطب منه النعمان ابنته السيدة كلثوم لولده الامير المنذر فأزوجه منها وأقامت معه زمناً طويلاً وهي أم ولده الامير تميم . وهذه الحادثة في سنة ثلاثمائة واثنتي عشرة . ولما لم يكن لي عهد بذكر احد من اولاد هارون الرشيد اسمه ابو يعقوب تحيرت مدةً في هذه الرواية وما زلت متحيراً الى ان اطلعت على كتاب اسمه تاريخ الملوك يذكر اولاد هارون الرشيد كلهم ومن جملتهم ابو يعقوب . ثم رأيت ذلك في تاريخ ابي الفداء . اذاً عدم اطلاعنا على اسم احد اولاد الملوك في تاريخ ابن الاثير او ابن خلدون او الطبري او المسعودي لا ينفي انه وجد . بل قد يغفل كثير من المؤرخين الكبار عن حوادث من اهم الحوادث وكثير من مترجمي الرجال عن تراجم أناس من أحرى الناس بالترجمة . افلا ترى كيف غفل ابن خلكان في وفيات الأعيان وهو رأس في هذا الفن عن ترجمة أناس من اشهر الرجال الذين يستحقون الترجمة وذلك اما ذهولاً منه او لانه لم يقع لديه من الاخبار ما يعول عليه . فقام محمد بن شاكر الكتبي والف كتاباً في تراجم من غفل عنهم ابن خلكان وسماه « فوات الوفيات » .

على ان الاعظمي يقول — ولا أعلم مصدر نقله — انه « لما قتل النعمان الثالث — ابو قابوس قتله كسرى ابرويز او مات في حبسه — سار احد اولاده بجملة من قبائل العرب ونزل بهم في سفح جبل لبنان وسكنوه مدةً وثبتت الامارة لاولاد النعمان وتوارثوه

منهم الامير ظهير الدين الذي ولاه السلطان نور الدين ملك مصر والشام على سفح الجبل المذكور سنة ٥٥٦ الموافقة لسنة ١١٦٠ وضم اليه القنيطرة وبرج صيدا والدامور ووضع عنده فرساناً ورتب لهم راتباً وجعلهم لقتال الافرنج ومنهم الامير بدر الدين محمد المتوفى سنة ٧٩٨ وكلهم من نسل النعمان الثالث» .

وعليه يكون للنعمان الثالث ابي قابوس اولاد غير قابوس وغير المنذر المغرور . ولم يذكر المؤرخون منهم غير هذين لانهما اشتهرا في زمن النعمان فلما انقرضت دولة المناذرة بظهور الاسلام وذهب منهم ملك الحيرة لم يعن المؤرخون بذكر اولادهم . فكما ان التنوخيين ينتسبون الى تميم بن النعمان بن المنذر ينتسب الارسلانيون الى عون بن المنذر المغرور بن النعمان ابن المنذر . ومن هنا جاء التواتر الذي في جبل لبنان بان هذين النخذين هما من اصل واحد ويزيد ذلك تأكيداً تجاور العائلتين في السكنى وتقسمهما الاقطاعات من قرى ومزارع وارضين وكثيراً ما وقعت بينهما الفتن والعداوات بسبب المقاطعات . وقرأت في بعض مخطوطات لبنان القديمة ذكر الارسلانيين والتنوخيين وان منهما بيوتاً في عرمون وانهما «على السيف» واذا قرأت تاريخ صالح بن يحيى التنوخي تجد انه يطعن في الارسلانيين في مواضع كثيرة ويذكر مناصبتهم العداء للتنوخيين . واذا ذكر احداً منهم بخير يقول مثلاً : «وفي ذلك الوقت قتل عماد الدين موسى بن حسان بن رسلان — كل من اسمه ارسلان فالعامة تخففه وتقول رسلان وهذا في كل محل — وكان المذكور خيراً من سلفه واجود منهم في حق البيت» فمقياس الجودة عند صالح بن يحيى هو حب البيت التنوخي . ومنشأ هذه الاختلافات كلها هو الاقطاعات والمنافسات على الامارة واذا قرأت تاريخ صالح بن يحيى وجدت شدة التشابك والتداخل بين اقطاعات التنوخيين والارسلانيين . فكلام الاستاذ حتي صحيح من جهة ان الامارة على الدروز لعهد الصليبيين كانت في يدي هاتين العائلتين . ولقد كانت هذه الامارة في غرب لبنان وبيروت من قبل ذلك التاريخ بكثير .

شكيب أرسلان

تحقيق الجاحظ (١)

- ٢ -

« التجربة والعيان »

— « » —

بقي من بعد هذا كله أن ننظر في الاصول التي كان يبني عليها الجاحظ في التحقيق فنذكر أنماطاً من تجربته وعيانه ، ونشير الى بعض الخصائص في هذه التجربة وهذا العيان ونذكر معرفة سماعه ، واذا فرغنا من الكلام على استعانته بالحواس تعرضنا للكلام على استعانته بالعقل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلنأت على ذكر نماذج من تجاربه فقد جرّب على أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيّات والظليم والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل وجرّب على النبات ، وكان في كل تجربة من تجاربه يذهب مذهباً خاصاً ففي بعضها كان يقطع طائفة من الاعضاء وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمي في تجربته الى معرفة بعض الحيوان واستقصاء صفاته ، وحيناً كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته ، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في اناء من قوارير ليعرف تقاتلها ، وكان يلجأ في بعض الاحايين الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان .

من هذه التجارب قطعه طائفة من اعضاء الحيوان فقد عقد فصلاً في كتاب الحيوان

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

بحث فيه عن نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب قال في مقدمة هذا الفصل[1] :

« أول ذلك طول الذماء، وهو بقية النفس وشدة انعقاد الحياة والروح بعـد الذبح وهشم الرأس والطعن الجائف النافذ حتى يكون في ذلك أعجب من الخنازير ومن الكلب ومن الخنفساء وهذه الاشياء التي قد تفردت بطول الذماء ثم شارك الضب الوزغة والحيـة فان الحية تقطع من ثلث جسمها فتعيش ان سلمت من الذر فجمع الضب الخصلتين جميعاً الاما رأيت في دخال الاذن من هذه الخصلة الواحدة فاني كنت أطعمه بتصفين فيخفي احد نصفيه يمنة والآخر يسرة الا اني لأعرف مقدار بقائهما بعد ان فاتا بصري » .

انكم لتدركون انه في خلال كلامه على صنف من الحيوان وفي اثناء تجربة من تجاربه قد يتعرض للمقابلة بين الحيوانات ففي هذه التجربة قد أشـار الى مشاركة الضب للوزغة وللحية في بعض الخصائص والمقابلة ركن من أركان التحقيق في علم الحيوان .

ومن تجاربه القاؤه على الحيوان ضرباً من السم فقد قال[2] :

« وقيل لي وقرأت في كتاب الحيوان ان ريح السذاب يشتد على الحيات فألقيت على الافاعي نور السذاب فما كان عندها الا كسائر البقل فالوقت لم في ذلك شيئاً فقالوا : الحيات غير الافاعي ، وهذا باطل ، الافاعي نوع من الحيات وكلهم قد عمّ ولم يخص» .

فانظروا كيف لا يصدّق مايقال له ولا يصدّق مايقرؤه في كتاب الحيوان حتى يقرن هذا كله بشيء من التجريب .

وقد كرر ذكر هذه التجربة في موطن آخر فوضّح الأعضاء التي جرّب عليها فقال[3] :

« والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح وتستريح الى نبات الحرمل واما انا فاني القيت على رأسها وانفها من السذاب ماغمرها فلم أر على ماقالوا دليلاً » .

ومن تجاربه محاولته معرفة بعض الحيوان واستقصاء صفاته فقد قال[4] :

« وقد رأيت بعض الحيات وكرمها لا أعرف ما فيها فاذا هو بعض مستطيل اكدر

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٦) .

(٢) « « الخامس ص ١١١ .

(٣) « « السادس ص ١٣٣ .

(٤) « « الرابع ص ٥٦ .

اللون أخضر ، وفي بعضه هش ولمع فاذا داخله فلم أر قيحاً قط ولا صديداً خرج من جرح فاسد الا والذي في بعضها أسمج منه وأقذر » .

ومن تجاربه القبض على الحيوان ليعرف حركته كقوله [١] :

« وفي الافاعي من العجب انها تذبح حتى يفرى منها كل ودج فتبقى كذلك اياماً لا تموت فأمرت الحاوي فقبض على خرزة عنقها فقلت له اقبضها من الخرزة التي تليهـا قبضاً رفيقاً فما فتح بينها بقدر سم الابرة حتى بردت ميتة » .

وفي هذه التجربة تظهر لنـا صفة من محاسن صفات التجربة وهي التكرار فقد قبض الحاوي على خرزة عنق الحية فأمره الجاحظ ان يقبضها من الخرزة التي تليها .

ومن تجاربه محاولة ذبح الحيوان ليفتش جوفه وقانصته فقد كنت ذكرت هذه التجربة في كلامي على اول عهدي بالجاحظ وذلك ان بعضهم شهد من يلقي الجمر في النار فاذا عاد كالجمر قذف به قدام الظليم فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر وقد كان الجاحظ حاول ان يعرف أيستمري الظليم الحديد كما يستمري الحجارة فعزم على ذبح الظليم وتفتيش جوفه وقانصته فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعضهم الى سكين فأحمى ثم القاه اليه فابتلعه فلم يجاوز أعلى حلقه حتى ظلع طرف السكين من مذبحه ثم خر ميتاً فمنع الجاحظ بخرقه من استقصاء ماأراد .

ومن تجاربه دفنه الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته كقوله [٢] :

« وفي الذبان طبع كطبع الجعلان فهو طبع غريب عجيب ولولا ان العيان قهر اهله لكانوا خلقاء ان يدفعوا الخبر عنه ، فان الجعل اذا دفن في الورد مات في العين وفنيت حركاته كلها وعاد جامداً تارزاً ولم يفصل النـاظر اليه بينه وبين الجعل الميت ما أقام على تأمله فاذا أعيد الى الروث عادت اليـه حركة الحياة من ساعته وجربت انا ذلك في الخنفساء فوجدت الأمر فيها قريباً من صفة الجعل ولم يبلغ ذلك لقرابة بين الخنفساء والجعل » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٣٩) .

(٢) « « الثالث ص١٠٨ .

وقد كان لا يكتفي بان يجرب بنفسه وانما كان يعاين تجارب غيره من هذا الشكل قوله [1] :

« ودخلت يوماً على ابن ابي كريمة واذا هو قد اخرج من اجانة كان فيها ماء من غسالة اوساخ الثياب واذا ذبان كثيرة قد تساقطن فيه من الليل فمتن ، هكذا كان في رأي العين فعبرن كذلك عشيتهن وليلتهن والغد الى انتصاف النهار حتى انتفخن وعفن واسترخين واذا ابن ابي كريمة قد أعد آجرة جديدة وفتات آجر جديد واذا هو يأخذ الخمس منهن والست ثم يضعهن على ظهر الآجرة الجديدة و يذر عليهن من دقاق ذلك الآجر الجديد المدقوق بقدر ما يغمرها فلا تلبث ان يراها قد تحركت ثم مشت ثم طارت الا انه طيران ضعيف » .

ومرة كان يذوق الحيوان ، من هذا القبيل ما حكاه لنا قال [2] :

« والشبوط حفظك الله جنس كثير الذكور قليل الاناث فلا يكون أناثه ابضاً يحملن البيض واذا جمعن فلو جمعت بيض عشر منهن لما كان كشطر بيض بنية واحدة فقد رأيت بعض الشبوط وذقته للتعرف فوجدته طيبات ولا يعجب وكل صياد تسأله فهو ينبئك ان له بيضاً ولكنه اذا كان يكون شبلاً قليلاً لان الشبابيط في اصل العدد من أقل السمك وكذلك الجنس منه اذا كانت الانثى منه مذكاراً على انه رب نهر يكون اكثر سمكه الشبوط وذلك قليل كنهر رامهرمز الا في الأودية والانهار و يكره الماء الملح و يطلب الأعذب فالأعذب و يكون في الماء الجاري ولا يكون في الساكن » .

فما ذاق الجاحظ الشبوط الا على سبيل التعرف .

ومرة كان يبعج بطن الحيوان ، من هذا النوع قوله [3] :

« كنت بعجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة » .

وحيناً كان يلجأ الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٠٨) .

(٢) « «

(٣) « « الرابع ص ٥٦ .

كاستعماله الكبريت الأصفر والقطران فقد قال في كلامه على النمل(١) :

« ومن أسباب هلاك النمل نبات الاجنحة له وقد قال الشاعر :

واذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

واذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير لانها تصطادها في حال طيرانها ولقتل بان يصب في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر و يدس في أفواهها الشعر وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً » .

اما تجربته على النبات فقد ذكرت لك قصة في كلامي على حياته تتعلق باعتنائه بداره فقد أراد ان يغرس في داره أراكة فكان ينقل المشارات من مكان الى مكان فما أفلح حب الأراك .

وحيناً كان يجمع أضداد الحيوان في اناء من قوارير ليعرف تقاتلها كالجمع بين الجرذ والعقارب فقد قال(٢) :

« ويزعمون انهم لم يروا قتالاً قط بين بهيمتين أشد من قتال يكون بين جرذين فاذا ربط احدهما بطرف خيط وشد رجل الآخر بالطرف الآخر فلها عند ذلك من الجلب والجش والعض والتشبث والنقاش مالا يوجد بين شيئين من ذوات العقار والهراش الا ان ذلك مادام في الرباط فاذا انحلا وانقطع ولّى كل واحد منهما عن صاحبه في الارض وهرب كل واحد خلاف جهة الآخر ، وان جعلا في اناء من قوارير أعني الجرذ والعقرب وانما ذكرت القوارير لانها لا تستر عن أعين الناس صنيعهما ولا يستطيعان الخروج للملاسة الحيطان فالفارة عند ذلك تختل العقرب فان قبضت على ابرتها قرصتها وان ضربتها العقرب ضرباً كثيراً فاستنفدت منها ما كان من أسباب حتفها .

والى جنب هذه التجارب أعمال كان يعملها على سبيل الضحك كقوله(٣) :

« واذا أردت ان ترى من الفيل مايضحك وتراه في أضحك حالاته فألق اليه جوزة

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ١١) .

(٢) « « الخامس ص ٧٧ .

(٣) « « السابع ص ٥٤ .

فانه يأخذها بطرف خرطومه، فاذا دنا منها تنفس فاذا تنفس طارت الجوزة من بين يديه ثم يدنو ثانية ليأخذها فيتنفس أخرى فتبعد فلا يزال ذلك دأبه » .

وهذا يدلنا على مبلغ ميله الى الهزل وعلى سر من أسرار روحه كما يتبين لنا ذلك في كلامنا على شكه .

هذه طائفة من تجاريب الجاحظ على الحيوان ، فقد نجد فيها صفة من صفات المجرب الحاذق وأريد بهذه الصفة التطلع العلمي فان هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بامور لايكون لها في نظر العامة معنى من المعاني وقد نجد فيها شيئاً من الصفات التي تستلزمها التجربة كالانتباه والتنزه عن كل غرض وانما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا فمن هذه اللوازم تنويع التجربة وبسط آفاقها ونقلها من شكل الى شكل وقلبها وماشابه ذلك فلئن كان الجاحظ يجرّب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً الى الحقائق فما كان ينوّع هذه التجارب او يبسطها او يخرج بها من صورة الى صورة او يقلبها من وجه الى وجه .

ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله على ما أعتقد فما كان يذهب من التجريب على امور خاصة الى استنباط القوانين العامة وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ويصنف ضروب هذا الحيوان والمقابلة والتصنيف ركنان من أركان التحقيق في علم الحيوان وما رأيناه من بعض مقابلاته قد لايكون كثيراً .

على ان الجاحظ ظهر من احد عشر قرناً وليس من العدل ان نكلفه اموراً لم تهتد اليها الفلسفة والعلم الا من زمن غير بعيد .

وسواء أنقصت اصوله التي كان يبني عليها في التحقيق نواقص ام لم ينقصها شيء انه لم يخرج في تجربته من زمرة كبار العلماء . ومايقال في نماذج تجربته قد يقال في أنماط عيانه ولابأس بان أذكر طائفة من هذه المعاينات فقد اخذ عيانه أصنافاً مختلفة من البشر ومن الحيوان ايضاً كالفيل والذباب والسنور والعقارب والفار والحمير .

اما بعض معاينته لامور البشر فقد كان يختص بما يعرض للخصيان من هذا النوع قوله [1] :

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٦٣) .

« ومن العجب انهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء لا يعرض لهم التخنث وقد رأيت غير واحد من الأعراب مخنثاً متفككاً ومؤنثاً يسبل سبلاً ورأيت عدة مجانين مخنثين ورأيت ذلك في الزنج الأقحاح وقد خبرني من رأى كردياً مخنثاً ولم أر خصياً قط مخنثاً ولا سمعت به ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانع منه ولكن كان الامر في ذلك الى ظاهر الرأي ولقد كان ينبغي لهم ان يكون ذلك فيهم عاماً » .

ومنه قوله (١) :

« وقد توجد المرأة ذات لحية وقد رأيت ذلك واكثر ما رأيته في عجائز الدهاقين وكذلك الغبب والشارب وقد رأيت ذلك ايضاً وهي ليست في رأي العين بخنثى بل أنثى تامة الا ان تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى حتى يظهر في غير ذلك المكان وليس يعرض ذلك للخصي » .

ففي هذه المعاينة شيء من المقابلة .

واما بعض معاينته لامور الحيوان فاذكر من هذا النوع كلامه على شيء من أعاجيب الذباب وفيه صورة العالم الطلعة الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، من هذا القوله (٢) :

[وعندنا بالبصرة في الذباب أعجوبة لو كانت بالشامات او بمصر لأدخلوها في باب الطلسم وذلك ان التمر يكون مصبوباً في بيادر التمر في شق البساتين فلا ترى على شيء منها ذبابة لا في الليل ولا في النهار ولا في البرد ولا في أنصاف النهار نعم وتكون هناك المعاصر ولأصحاب المعاصر ظلال ومن شأن الذباب الفرار من الشمس الى الظل وانما تلك المعاصر بين تمرة رطبة ودبس ثم لا تكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر في انتصاف النهار وفي وقت طلب الذباب الكن الا دون ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذباب وهذا الشيء يكون موجوداً في جميع الشق الذي فيه البساتين فان تحول شيء من تلك البادية الى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة غشيه من الذباب ما عسى ان لا يكون بارض الهند اكثر منه وليس بين جزيرة نهر دبيس وبين موضع

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص٥٢) .

(٢) « « الثالث ص١٢٥ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذبان الا قبض البصرة ولا بين مايكون من ذلك بنهر اذرب وبين موضع الذبان مما يقابله الا فرسخان وهو ذلك النمر وتلك المصرة ولا تكون تلك المسافة الا مائة ذراع أو ازيد شيئاً او انقص شيئاً .

وأعجوبة أخرى وهي عنـدي أعجب من كل شيء صدّرنا به جملة القول في الذباب فمن العجب ان يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط فانها اذا كان الليل فان احدهما يتدلى من غصن الشجرة و يضم عليه رجليه و ينكس رأسه ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور والآخر لا يزال ينتقل في زوايا بيته ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه فلا يزال كذلك وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار مما يشتبه بالليف فتنشه ثم فتل منه حبلاً ثم عمل منه كهيئة القفـة ثم جعله مدلاً بذلك الحبل وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان الا ان ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ثم يتخذ عشـه فيه ، يأوي اليه مخافة على نفسه] .

ومن هذه المعاينات ماحكاه في بعض كلامه على غمس خراطيم الذباب في جوف لحوم الدواب وخرق جلودها القلاعظ قال[1] :

[وربما رأيت الحمار وكأنه منعر او مقصقر فانهم مع ذلك ليجللونه حرم و يبرقعونها وما يدعون موضعاً الا ستروه بجهدهم فربما رأيت الحمير وعليها الرجال بايديهم المناخس والمذاب وقد ضربت بانفسها الارض واستسلمت للموت وربما رأيت صاحب الحمير اذا كان أجيراً يضربها بالعصا بكل جهده فلا تنبعث وليس لجلد البقرة والحمير والبعير عنده خطر ولقد رأيت ذباباً سقط على سالفة حمار كان تحتي فضرب باذنيه وحك رأسه بكل جهة انا أتأمله وما يقلع عنه فعمدت بالسوط لانحيه به فنزا عنه ورأيت مع نزوه عنه الدم وقد انفجر كأنه كان يشرب الدم وقد سد المخرج بفيه فلما نحاه طلع] .

ولقد كان يراقب السنانير في داره نفسها فيشهد نقائلها والجراذين فقد قال[2] :

[وانا رأيت سنوراً عندنا ساور جرذاً في بيت الحطب فأفلت الجرذ منه وقد فقأ عين السنور] .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١١٠) .

(٢) « « « الخامس ص ٧٧ .

ARCHIVE

تحقيق الجاحظ

- ٣ -

« معرفة السماع »

—«×»—

والى جنب هذا المذهب الذي كان يذهبه في التحقيق اي مذهب الاستعانة بالعيان والتجربة مذهب آخر وهو معرفة السماع وقد أشار اليه في مقدمة كتاب الحيوان لما قال: فقد أخذ ، اي كتاب الحيوان ، من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وهذه الطريقة اي طريقة التحقيق بالسماع قد يلجأ اليها اكابر العلماء في عصرنا أمثال « سبنسر » فقد وجدت انه في كلامه على تأثير الحيوان في الحشرات كان يروي كلام احد التجار على النمل فقد كان الجاحظ يعتمد في تحقيقه في بعض الاحوال على ما يسمعه من أفواه بل متعاطيها الحيوان فكان يسمع اخبار العطارين والجزارين والبحريين والسماكين والصيادين والملاحين والحوائين والأطباء والأكرة وغيرهم من اصدقائه واهل المعرفة والعلم ، وقد تدخل هذه الأخبار في أبواب شتى من أبواب الحيوان مثل تقطيع أصوات بعض الطير او اقتتال العقارب والفار او طعم العقارب او طعم الحيات او سم الأفاعي او أخلاق بعض الكلاب او بيوت الزنابير او ختل الاسد لفريسته او زواج الشفنين او تسافد الذئب والذئبة او بعض أخبار الفيل او اخبار السمك .

ولكن كيف كان الجاحظ ينظر في هذه الاخبار ، أفكان يلتقطها التقاطاً ليس فيه شيء من التمحيص ، أفكان يجمع هذه الاخبار دون ان يعرضها على تمييزه ، او يعمل فكرته فيها وهو المتوثق في تحقيقه المتثبت في تدقيقه ، الذي لا تشفيه الا المعاينة والذي لا يصدق الا ما تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار .

ام كان الجاحظ يعمل الرواية في الذي يتصل به من الأخبار فلا ينقل الا عن رجل لا يرتاب بخبره[١] او عن رجل قاطع الشهادة[٢] او عن أمثال هذه الطبقة من الرجال ممن يصدق الخبر الصارم[٣] . او عن أستاذ من الاساتيذ . او عن رجل يثق بعقله و يسكن الى خبره[٤] .

ام كان ينقل عن جماعة اذا خالجه الشك في أخبارهم نبّه على غرابة أقوالهم وغثاثة عباراتهم وسماجة مخارج هذه الأقوال والعبارات حتى يحمل القارئ على هدى من أمره . لقد وقفنا على نماذج مختلفة من الأخبار التي كان ينقلها .

فمرة كان يسمع من هذه الاخبار ما لا يهتدي الى الاحاطة باسراره فيسأل عن هذه الاسرار أهل المعرفة حتى ينكشف له الامر .

من هذا النوع ما حكاه لنا لما قال[٥] :

وقال ابن الكلبي : قال الشرقي بن القطامي ذات يوم : أرأيتم لو تكلّف رجل منكم عمره الأطول في ان يعرف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المحدقة بمثل المجالس المستوية في الأقدار المتحاجزة بالحيطان السخيفة في المنظر الخفيفة في المحمل المستديرة ، المضمر بعضها ببعض المتقاربة الاجزاء ، وهي البيوت التي نعلم انها بنيت من جوهر واحد وكأنها من ورق أطباق صغار الكاغد المزورة ، قولوا لي : كيف جمعته ومن اي شيء اخذته وهو لا يشبه البناء ولا النسج ولا الخياطة ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً فلم يصر في ايدينا منها الا التعجب والتعجيب فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرة فزعموا انها تلتقطه من زبد الممدود فلا يدري أمن نفس الزبد تأخذ ام من شيء يكون في الزبد والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علّم العنكبوت ذلك النسج » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٣٥) .
(٢) « « « « ص ٧٠ .
(٣) « « « الثالث ص ١٦٣ .
(٤) « « « السابع ص ٤٢ .
(٥) « « « « ص ١٣ .

فلما رأى الجاحظ ان ابن الكلبي والشرقي لم يفسّرا له كيف جمعت الزنابير بيوتها ومن اي شيء اخذتها لم يطمئن فكره ولم يهدأ باله ، فقصد الى مشايخ الاكرة وسألهم عن ذلك وهذه صفة من صفاته الغالبة فانه مجبول على محبة الوصول الى الحقائق يسأل عنها ايّاً كان ممن له اتصال بها .

ومن هذا النوع قوله في طعم الحيات وقد سأل عنه بعض الحوائين ، فقد قال[1] :

[وسألت بعض الحوائين ممن يأكل الافاعي حيّة ونيّة مما دونهـا فقلت : ما بال الحيات منتنة الجلود والجذوم ، قال : اما الافاعي فانها ليست منتنة لانها لا تأكل الفأرة فأما الحيات عامةً فانها تطلب الفأر طلباً شديداً وربما رأيت الحية وما يكون غلظها الا مثل الابهام الكبير ثم اجدها قد ابتلعت الجرذ اغلظ من الذراع ، وانكر نتن الحيات الا من هذا الوجه ، ولم ار القديم قال قولاً مثل قول اعرابي ودخل الامصار فلقي من الجرذان جهداً فوجد بها ودعا عليها فقال : الابيات .... »

ومرة كان يسمع الخبر فيثبته دون ابداء رأي فيه ، كقوله في سم الافاعي[2] :

[ومن عجيب سم الافاعي ما اخبرني بعض من يخبر بشأن الافاعي قال : كنت بالبادية ورأيت ناقة وفصيلها يرتضع من اخلافها اذ نهشت الناقة على مشافرها أفعى فبقيت والغفة سادرة والفصيل يرتضع فبينما هو يرتضع اذ خرّ ميتاً فكان موته قبل موت أمه من العجيب وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب وكان ماصار من فضول سمها في لبن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجباً آخر] .

او قوله في بعض أخبار الفيل[3] :

« وحدثني صديق لي قال : رأيت الفيالين على ظهر فيل من هذه الفيلة فأقبل صبي يريد السندي الراكب فكأمّ الفيل بالهندية فوقف ، ثم كلّه ، فمدّ يده رافعاً في الهواء حتى ركبها الغلام ثم رفع يده حتى مد السندي يده فأخذ بيد الصبي » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٨٠) .
(٢) « « « ص ١١١ .
(٣) « « الرابع ص ٧٠ .

او قوله في اخبار تسافد الذئب والذئبة[١] :

وحدثني احمد بن المثنى قال : خرجت الى صحراء لحوخ لجناية جنيتها وخفت الطلب وانا شاب اذ عرض لي ذئب فكنت كما درت من شق استدار بي فاذا درت له دار من خلفي وانا وسط برية لا اجد معيناً الا بشيء أسند اليه ظهري واصابني الدُوار وايقنت بالهلكة فبينا انا كذلك وقد اصابني ما اصابني وذلك هو الذي اراده الذئب ولدره واذا بذئبة قد عرضت وكان من الصنع وتأخير الاجل ان ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافدها فلما عاينها تركني وقصد نحوها فما تلعثم ان ركبها وقد كنت قرأت في بعض الكتب انها تلتحم فقومت سهمي وهما ينظران اليّ فلما لم ار عندهما نكيراً حقق ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمها فشبت اليها بسيفي حتى قتلتها .

او قوله في بعض اخلاق الكلاب وعاداتها[٢] :

او قوله في السنانير[٣] :

وزعم بعض الاطباء ان السنور انما يدفن خرأه ثم يعود الى موضعه فيشمه فان كان يجد من ريحه بعدُ شيئاً زاد عليه من التراب لان الفارة لطيفة الحس جيدة الشم فان وجدت تلك الريح عرفتها فامتنعت في الهرب فلذلك يصنع السنور ما يصنع » .

او قوله في طعم العقارب[٤] :

« وقد زعم ناس ممن يأكلون العقارب مشوية ونية انها كالفراخ السمان » .

وحيناً كان يسمع الأخبار فيرتاب بها ارتياباً شديداً وخاصة اخبار البحر بين فما كان يغفل عن التنديد بهم في كل فرصة يصيبها .

من هذا النحو قوله في بعض كلامه على كلام السمك[٥] :

« ولم نجهل لما يسكن الملح والعذوبة والانهار والاودية والمناقع والمياه الجارية من

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص٧٨) .
(٢) « « « ص ٤٥ .
(٣) « « « الخامس ص٧٨ .
(٤) « « « الرابع ص١٥ .
(٥) « « « السادس ص ٦ .

السمك ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك باباً مجرداً لاني لم اجد في اكثره شعراً يجمع الشاهد و يوثق منه بحسن الوصف وينشطه بما فيه من غيرذلك للقراءة ولم يكن الشاهد عليه الا اخبار البحريين وهم قوم لايعدون القول في باب العمل و كلما كان الخبر أغرب كانوا به اشد عجباً ، مع عبارة غثة ومخارج سمجة ؛ وفيه عيب آخر وهو ان معه من الطول والكثرة ما لا تحتملونه بلو خطأكم بجميعه مخارق وضرب عليه زلزل وزمر عليه برصوما فلذلك لم اتعرض له » .

او قوله في موطن آخر[1] :

« وقد روى لنا غير واحد من اصحاب الأخبار ان اياس بن معاوية زعم ان الشبوط كالبغل وان أمها برية واباها بحري وان من الدليل على ذلك ان الناس لم يجدوا في بطن شبوطة قط بيضاً وانا أخبرك اني قد وجدته فيه مراراً ولكني وجدتها اصغر جثة وابعد من الطيب ولم اجده عاماً كما اجده في بطون جميع السمك .

فهذا قول ابي واثلة اياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي وصاحب الازكان والموقى من كور بن علقمة وداهية مضر في زمانه ومفخر من مفاخر العرب فكيف اسكن بعد هذا الى اخبار البحريين واحاديث الملاحين والى مافي كتاب رجل لعله لو وجد هذا المترجم ان يقيمه على المصطبة و يبرأ الى الناس من كذبه عليه ومن الافساد معانيه بسوء ترجمته » .

واذا كانت اخبار البحريين مما يتقبله بعض الناس وهو لم يوقن به كل الايقان نبه عليه كقوله[2] :

وسمعت حديثاً من شيوخ للأحي الموصل وانا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم و يتقبله جميعهم وزعموا ان الاسد ربما جاء الى قلس السفينة فيتشبث به ليلاً والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون ان القلس قد التف على صخرة او تعلق بجذم شجرة ومن عادتهم ان يبعثوا اول المداذين بحله فاذا رجع اليه الملاح ليحله تمدد الاسد بالارض ولزق بها وغمض عينيه كيلا يبصر ويبصرها بالليل فاذا قرب منه وثب عليه فخطفه فلا يكون للملاحين هم الا القاء انفسهم في الماء وعبورهم اليه وربما اكله الا مابقي منه وربما

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ٦) .

(٢) » » » الثاني ص ٤٥ .

جرٌ فريسته الى عرينه وعرينه والى أجرائه وأشباله وان ذلك على امبال » .

او اذا كان البحري مقتصداً في القول سديد الرأي قليل الكلفة اخذ عنه الخبر واشار الى صفاته حتى ينفي الشبهة عنه كما قال في بعض المواطن [1] :

واخبرني رجل من البحريين لم ار فيهم القصد ولا اسدّ ولا اقلّ تكلفاً منه ، قال : لم اجدهم يشكون ان فيالاً ضرب فيلاً فأوجعه فألح عليه ، وانهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا لانه حيث ينسالك فانه من الحيوان الذي يحقد و يطالب ولما اراد السائس القائلة شدّه الى اصل شجرة واحكم وثاقه ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ولذلك السائس جمة فتناول الفيل بخرطومه غصناً كان مطروحاً فوطئ على طرفه حتى تشعث ثم اخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرف على جمة الهندي ثم لواها بخرطومه فلما ظن انها تشبكت به وانعقدت جذب الهندي فاذا هو تحت رجليه فخبطه خبطة كانت فيها نفسه ، فان كان الحديث حقاً في اصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة وان كان باطلاً فانهم لم ينحلوا الفيل هذه النحلة دون غيره من الدواب الا وفيه عندهم ما يحتمل عليه و يليق به » .

على انه كان ينقل عن فريق منهم من غير ان يتبين في كلامه الشك ، من هذا الشكل قوله [2] :

« ويزعم البحريون ان طائرين يكونان ببلاد الصقالبة ، احدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهم وقبل ان يمكن البحر من نفسه لخروجهم ومتاجرهم فيقول الطائر : قرب أمد ، فيعلمون بذلك ان الوقت قد دنا وان الامكان قد قرب ، قالوا ويجيء به طائر آخر وشكل آخر فيقول : سمارو ، وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم فيسمون هذين الجنسين من الطير : قرب وسمارو ، كأنهم سموهما بقولهما وتقطيع أصواتها كما سمت العرب ضرباً من الطير القطا ، لان القطا كذلك تصيح وتقطع أصواتها : قطا ، كما سموا الببغا بتقطيع الصوت الذي ظهر منه ، فيزعم اهل البحر ان ذينك الطائرين لا يطير احدهما ابداً الا في اناث وان الآخر لا يطير ابداً الا في ذكورة » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٧١) .
(٢) « « الثالث ص ١٦٣ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وربما نقل عن بعضهم كلاماً جعله حجة يحاج بهـا ارسطاطاليس في بعض رده عليه فانه لما قال [١] :

« وقـد قلت لرجل من البحريين : زعم ارسطاطاليس ان السمكة لاتبتلع الطعم ابداً الا ومعه شيء من ماء مع سعة المدخل وشره النفس فكان من جوابه ان قال لي : مايعلم هذا الا من كان سمكة او اخبرته به سمكة او حدثه بذلك الحواريون اصحاب عيسى ، فانهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا البحري صـاحب كلام وهو يتكلف معرفة العلل وهذا كله جوابه ولكني لم اقنع بذكر بعض ماوجدته في الاشعار والاخبار اذا كان مشهوراً عند من يتزل الاسياف وشطوط الاودية والانهار ويعرفه السماكون ويقر به الأطباء بقدر ما أمكن من القول » .

جعل قول البحري حجة له في رده على ارسطاطاليس [٢] :

« واما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لاتنق حتى تدخل فكها الاسفل في الماء لان الصوت لا يجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان ، وانما زعمه بان السمكة لاتبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأي عيان دل على هذا وهذا عسير » .

والخلاصة كان ينقل عن ثقة وهذا الثقة قد يكون أستاذاً كما في قوله [٣] :

ودخلت انا مرة وحمدان الصباح على عبيد الشونيزي فاذا عنده برنية زجاج فيهـا عشرون عقرباً وعشرون فاراً فاذا هي تقتتل فخيل لي ان تلك الفار قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع ورأيت العقارب قد كلت عنها وتاركتها ولم أر الا هذا المقدار الذي وصفت ، وحدثنا عنها عبيد باعاجيب ولو كان عبيد أستاذاً لخبرت عنه ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد » .

هذه جملة القول في معرفة سماعه ومنها يتبين لكم ان الجاحظ لم يخلُ من التوثق في نسقط اخباره فاذا وجد مجال الشك ذا سعة عمد الى الشك لان الرجل الذي يقول في

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ٦) .
(٢) « « « الخامس ص١٥٦ .
(٣) « « « « ص ٧٧ .

كلامه على الأخبار وعلى المولعين بها [1] :

« ان الناس موكلون بحكاية كل عجيب ومبشرون للاخبار عن كل عظيم وليسوا لحسن احكى منهم للقبيح ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم » .

والذي يقول في موطن آخر [2] :

« ان الخبر قد يكون اصله ضعيفاً ثم يعود قوياً و يكون اصله قوياً فيعود ضعيفاً للذي يعتريه من الاسباب ويحل به من الاعراض من لدن مخرجه وفصوله الى ان يبلغ موته ومنتهى اجله وغاية التدبير فيه والمصلحة عليه فلما كان هذا مخوفاً وغير مأمون على المتقادم منه ، وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة وعلى غاية كل مدة امارة ليعيد قوة الخبر ويجدد ما اندرس بالدروس من أنباء المرسلين عليهم الصلاة والسلام اجمعين » .

ان الذي يقول هذا القول وأضرابه لعارف بما يدخل الأخبار عادة من نقص الناقصين او زيادة الزائدين على حسب الاهواء او على قدر متانة الحفظ وضعفه او على قياس الفتنة بالحقيقة والولع بالخيال فلهذا لم يجد الجاحظ له بداً من التثبت في تصديق بعض الاخبار ومن الشك في طائفة منها .

دمشق : في ٢٨ آذار سنة ١٩٣١

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ٦٢) .

(٢) « « « « « ص ٥٦ .

الشاعر الصنوبري

—•—

قلما أنظر في كتاب موضوعه الشعر والادب العربي الا و يبرز لي في اثناء سطوره شيء من الشعر الرائع المنسوب الى الصنوبري اذ يقول مورده (قال الصنوبري) او (وللصنوبري) مقتصراً على هذه الكلمة غير مصرح باسمه ونسبه وشيء من سيرته . وقد لفت نظري كثرة ورود هذه الكلمة الى عظمة الصنوبري ونبهني الى علو كعبه بين شعراء عصره وصوره لي في مخيلتي شاعراً مفلقاً واديباً كبيراً جديراً باماطة الحجاب عن اسمه ووطنه وشيء من سيرته وعن العصر الذي وجد فيه وتاريخ وفاته خصوصاً وقد رأيت في عنوان بعض ما ينسب اليه من الاشعار كلمة (الحلبي) فقد ضاعفت هذه الكلمة شوقي الى الوقوف على حقيقته والاشراف على شيء من سيرته حرصاً على الفخر الذي يحرزه بلدي من هذه الناحية وتعصباً لرجل يهمل فيبقى شعره مبعثراً في شتى الكتب ومطاوي صحف التاريخ ، فجمعت نبذة من أخباره وبحثت عن هذه المقاصد وجلت في كتب الادب جولة تتبع واستقصاء حتى تيسر لي شيء مما قصدت واردت فجمعت من أشعاره زهاء اربعمائة بيت ولم ازل دائباً في البحث عنها واثبت في ترجمته مقدمة مختصرة وكان اول سفر عثرت فيه على كلمات في هذا الشاعر — مجموعاً قديماً مخطوطاً قال فيه صاحبه :

« احمد ابو بكر بن محمد بن الحسين الضبي الحلبي الشاعر المعروف بالصنوبري تكلم جده بين يدي المأمون فأعجبه شكله فقال انك لصنوبري الشكل فلزمه هذا اللقب ، وهو ممن يضرب بالمثل بروضياته توفي سنة ٣٣٤ » ثم قرأت في كتاب فوات الوفيات للكتبي ما صورته :

« احمد بن محمد الضبي الحلبي الصنوبري » ثم اورد نبذة من اشعاره مقتصراً على ذلك دون ان يتعرض لشيء من اخباره وتاريخ وفاته ؛ بعد هذا قرأت في كتاب معجم البلدان لياقوت عند الكلام على حلب ما لخصته : وقد اكثر الشعراء من ذكرها (حلب) ووصفها والحنين اليها وانا اقنع من ذلك بقصيدة لابي بكر محمد بن الحسن بن مروان الصنوبري وقد اجاد بها ووصف متنزهاتها وقراها القريبة منها ثم اورد القصيدة التي اولها :

احبس العيس أحبساها وسلا الدار سلاها

وهي قصيدة طويلة تعد ١٠٣ ابيات .

ثم رأيت في تاريخ الشام الكبير لابن عساكر ما نصه :

« احمد بن محمد بن الحسين بن مرار الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي الشاعر المحسن اكثر اشعاره في وصف الرياض والأنوار قدم دمشق وله اشعار في وصفها ووصف متنزهاتها ، قال عبدالله الصفري سألت الصنوبري عن السبب الذي من اجله نسب جده الى الصنوبر حتى صار معروفاً به فقال لي كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت المأمون فجرت له بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدة مزاجه فقال له انك لصنوبري الشكل يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج اه .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقرأت في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ما خلاصته : ان الصنوبري كان يسمى حبيباً الاصغر لجودة شعره ، قال ولقبه المتنبي بالمصيصة او غيرها فقال له يهزأ به ؛ انت صاحب بغادين يريد قصيدته :

شربنا في بغادين[1] على تلك الميادين

لما فيها من المجون والخلاعة فقال له الصنوبري وانت صاحب الطرطبة يريد قصيدته :

---

(١) بغادين بغين معجمة ودال مهملة — غلط صوابه بعاذين بعين مهملة وذال معجمة — علم على ناحية من بساتين حلب وكانت قبلاً علماً على قرية في موضع هذه الناحية قال فيها ابو العباس الصفري من شعراء سيف الدولة :

يا لأيامنــا بمرج بعاذين وقــد اضحك الربا نواره
وكأن الشقيق والريح تنفي الطل عنه جمر يطير شراره
اذكرتني عناق من بان عني شخصه باعتناقهــا اشجاره

ماانصف القوم ضبه وامه الطرطبة

لما فيها من اللين والركاكة اه ٠

وقرأت في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي ماصورته :

« وحكى ابن جني قال حدثني ابو علي الحسين بن احمد الصنوبري قال خرجت من حلب أريد سيف الدولة فلما برزت من السور اذ انا بفارس ملثم قد اهوى نحوي برمح طويل الى صدري فكدت اطرح بنفسي عن دابتي فلما قرب مني ثنى السنان وحدّث به فاذا المتنبي وانشدني :

نثرنا(١) رؤوساً بالاحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال كيف ترى هذا القول أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك قد قتلتني ٠ قال الثعالبي : قال ابن جني فحكيت انا هذه الحكاية بمدينة السلام لابي الطيب فعرفها وضحك لها وذكر اباعلي من التقريظ والثناء بمايقال في مثله ٠ قال وانشدت اباعلي ليلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها :

« واحر قلباه ممن قلبه شبم » الخ فلما وصلت الى قوله :

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

اعجبه جداً ولم يزل يستعيده، حتى حفظه اه ٠

الاختلاف في ترجمة الصنوبري — اذا امعنا النظر في ترجمة الصنوبري التي اتى بها كل واحد من صاحب المجموع المخطوط وفوات الوفيات ومعجم البلدان وابن عساكر وابن جني — فاننا لاول وهلة يظهر لنا اختلاف عظيم في اسم الصنوبري واسم ابيه وجده وجدابيه ووصفه مرة بالضبي وأخرى بالضبي وتسمية ياقوت لجده بمروان وتسمية ابن عساكر لجد ابيه بمرار وتفرد ابن جني باسمه واسم ابيه دون جميع من ذكرناهم ممن ترجموا له :

(١) هذا البيت من جملة ابيات من قصيدة للمتنبي اولها :

« على قدر اهل العزم تأتي العزائم » الخ ٠

واصل هذا البيت في هذه القصيدة هكذا :

نثرتهم فوق الأحيدب كله كما نثرت فوق العروس الدراهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما انا فاتبع باسمه واسم ابيه ونسبه — الا كثرية التي تتألف من صاحب المجموع المخطوط وصاحب الفوات وابن عساكر فأقول هو « احمد بن محمد الصبني الصنوبري الحلبي » وان كلمة الضبي الواردة فيما ترجم له ابن عساكر — محرفة عن الصبني ، اختار هذا في ترجمته واقتصر عليه واوكل تصحيح اسم جده وجد ابيه الى رائدي التحقيق والبحث عنها في معاجم الادباء وكتب التاريخ ٠

تاريخ وفاته — اما تاريخ وفاته فلم أر من صرح به سوى صاحب المجموع فزعم انها كانت في سنة ٣٣٤ وهذا بلا ريب تاريخ مغلوط اذا سلمنا بصحة الحكاية التي اوردها صاحب اليتيمة عن ابن جني فانها كادت تفيدنا صراحة ان الصنوبري كان سنة ٣٤٦ حياً يرزق ، نستفيد هذا من قول ابن جني : وانشدت اباعلي ليلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها : واحر قلباه الخ فان هذه القصيدة آخر ما نظمه ابو الطيب في حلب اي انه نظمها حين فارق سيف الدولة وذلك في السنة المذكورة ٠ وعلى كل حال فان تاريخ وفاة الصنوبري لايخلو من إبهام فهو يحتاج الى تدقيق عميق ٠

عدم التنويع في شعر الصنوبري — رأيي في الصنوبري من هذه الجهة انه كان عالي النفس ضنيناً بماء محياه عن ان يبذله في طلب جوائز ممدوح صائناً لسانه عن قول الهجر والبذاء في هجاء من ناوأه او عاداه ، يقول الشعر تأدباً لا تكسباً مقتصراً في اكثره على وصف الرياض والأزهار كعندليب يقيل في ظلالها ويتنقل في افيائها ويغرد في انوارها يشدو بذكر المحبوب ويلهو بلذيذ المشروب قانعاً من دنياه بعيش مقرون بالعز وشرف النفس معتمداً على قول القائل « من قر عيناً بعيشه نفعه » ٠

وها استحسن ايراد نبذة من اشعاره التي تسنى لي جمعها ليستدل الناظر فيها على منزلته في الشعر وعلو كعبه في البديع وتفننه بانواع التشبيه التي كاد يضاهي بها براعة ابن المعتز الذي انفرد بهذه الصناعة ، فأقول :

قال الصنوبري كان اول شعر قلته وارتضيته قولي ٠

ما حل بي منك وقت منصرفي ... ما كنت الا وديعة التلف

كم قال لي الشوق قف لتلثمه ... فقال خوف الرقيب لا تقف

فكان قلبي في زي منعطف وكان جسمي في زي منصرف

كان للصنوبري ابن مسترضع ففطم فدخل الصنوبري يوماً داره والصبي يبكي فقال مالابني ، قالوا : فطم فتقدم الى المهد وكتب عليه ارتجالاً :

منعوه احب شيء اليه من جميع الورى ومن والديه
منعوه غذاء وقد كان مباحاً له وبين يديه
عجباً منه ذا على صغر السن هدي فاهتدى الفراق اليه

وله :

نار راح ونار خد ونار لحشا الصب بينهن استعار
ما ابالي ما كان ذا الصيف عندي كيف كان الشتاء والامطار

وله :

ماقضى في الربيع حق المسرا ت مضيع زمانه في الخريف
نحن منه على تلقي شتاء يوجب القصف اووداع مصيف
في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء منه خوفاً اذا ما لمسته يد النسيم الضعيف

وقال :

الى طربت الى زيتونة بطياس (١) بالصالحية بين الورد والآس
من يئس عهدهما يوماً فلست له وان تطاولت الايام بالناسي
ياموطناً كان من خير المواطن لي لما خلوت به ما بين جلاسي
وقائل لي أفق يوماً فقلت له من سكرة الحب ام من سكرة الكاس
لا اشرب الكأس الا من يدي رشأ مهفهف كقضيب البان مياس
مورد في الخد في قمص موردة له من الآس اكليل على الراس
قل للذي لام فيه هل ترى خلقاً يا املح الروض بل يا املح الناس

(١) بطياس قرية في باب حلب بين النيرب و بابلى وكانت قصراً لعلي بن عبد الملك ابن صالح امير حلب وقد خربت القرية والقصر وصار في موضعها بستان فستق يعرف الآن بكرم القصر .

وله :

سقى حلباً سافك دمعه … يطي الرقوه اذا ما سفك
ميادينه بطون الرياض … وساحاته بينهن البرك
ترى الريح تنسج من مائه … دروعاً مضاعفة او شبك
كأن الزجاج عليها اذا … ب وماء اللجين بها قد سبك
هي الجو من رقة غير ان … مكان الطيور يطير السمك
وقد نظم الزهر نظم النجوم … فمفترق النظم او مشتبك
كما درج الماء مر الصبا … ودبج وجه السماء الحبك
بساتين اعلام قمص القيا … ن ونقش عصائبها والتكك

وقال في دمشق وبعض منتزهاتها :

أمر بدير مران[1] فأحيا … فأجمل بيت لهوي بيت لهيا
وتبرد غلتي بردى فسقيا … لأيامي على بردى وسقيا
تفيض جداول البلور فيها … خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكههن ابهى الـ … مناظر في مناظرنا واهيا
فمن تفاحة لم تعد خداً … ومن رمانة لم تعد ثديا
ونعم الدار داريا[2] ففيها … صفا لي العيش حتى صار ريا
ولي في باب جيرون ظباء … أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها … فلست أريد غير دمشق دنيا

وله يفضل فصل الربيع على بقية الفصول :

ان كان في الصيف ريحان وفاكهة … فالارض مستوقد والجو تنور
وان يكن في الخريف النخل مخترفاً … فالارض محسورة والجو مأسور

---

(١) دير مران كان بالقرب من دمشق فوق تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبناؤه بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملون وكان ديراً كبيراً وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به اه معجم البلدان .

(٢) داريا من أمهات قرى غوطة دمشق ومنها يخرج العنب الزيني المنقطع النظير.

ARCHIVE

وان يكن في الشتاء الغيث متصلاً　　فالارض عريانة والجو مقرور
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا　　جاء الربيع اتاك النور والنور
فالارض ياقوتة والجو لؤلؤة　　والنبت فيروزج والماء بلور
ما يعدم النبت كأساً من سحائبه　　فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه انثنى الورد منضود مورده　　بين المجالس والمنثور منثور
ونرجس ساحر الابصار ليس لما　　كانت له من عمى الابصار مسحور
هذا البنفسج هذا الياسمين وذا الـ　　ـسرين مذ قربا فالحسن مشهور
تظل تنثر فيه السحب لؤلؤها　　فالروض ضاحكة والطير مسرور
حيث التفت فقمري وفاختة　　يغنيان وشفنين وزرزور
اذا الهزارات فيه صوتا فهما　　بحسن صوتهما عود وطنبور
تطيب فيه الصحاري للمقيم بها　　كما تطيب له في غيرها الدور
من شم ريح تحيات الربيع يقل　　لا المسك مسك ولا الكافور كافور

وله :

ولم انس [1] ما عاينته من جماله　　وقد زرت في بعض الليالي مصلاه
ويقرأ في المحراب والناس خلفه　　ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
فقلت تأمل ما تقول فانه　　فعالك يا من تقتل الناس عيناه

وله في المواعيد الكاذبة :

قال لنا نخلة وقد طلعت　　نخلتنا فاصطبر لطلعتها
حتى اذا صار طلعها بلحاً　　قال توقع بلوغ بسرتها
حتى اذا بسرها غدا رطباً　　قال اصطبرنيها لتمرتها
فمدرعن نخلة كنخلة عرقو　　ب ومن قصة كقصتها

وله :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) هذه الابيات الثلاثة نسبها صاحب معاهد التنصيص الى ابي نواس وقد رأيتها في عدة كتب منسوبة الى الصنوبري ·

ولقبوه [1] بحب الظرف ليتهم   ضاعوا كما ضاع وصف ذلك اللقب

ولنكتف هنا بهذا القدر من اشعار الصنوبري راجين من محبي الادب الحر يصين على إحياء ذكر هذا الشاعر ان يمدوا لنا يد المساعدة؛ و يكتبوا الينا بما يظفرون به مما ينسب اليه لنضيفه الى ماجمعناه وما نجمعه بعد ونعده للطبع ، وهنا نذكر اسماء الكتب التي استقصيناها للبحث عن آثار الصنوبري كيلا يتكبد غيري مشقة استقصاءها مرة ثانية فأقول هي : (العمدة لابن رشيق) (معاهد التنصيص) (التبيان شرح ديوان المتنبي) (الشريشي شرح مقامات الحريري) (خزانة الادب للحموي) (نفحات الازهار للنابلسي) (فوات الوفيات للكتبي) (معجم البلدان لياقوت) (تاريخ الشام الكبير لابن عساكر) (صبح الاعشى للقلقشندي) (نهاية الارب في فنون العرب) (زهر الآداب للقيرواني) (نزهة الانام في محاسن الشام) (مواسم الادب) انتهت .

(حلب)   كامل الغزي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) حب الظرف عند اهل العراق هو الجرب . (المجمع) كذا جاءنا هذا البيت وهو غير مستقيم الوزن فلعل صوابه (ضاعوا كما ضاع منهم ذلك اللقب) .

الغلاظة في اللغة

—*—

غلظ الشيء يغلظ غلظة وغلظاً وغلاظة : خلاف دقّ ورقّ وكذلك استغلظ جلده وأعبل الشيء .

وعرد — عروداً ، وشأز المكان يشأز شأزاً وشؤوزاً ، وحزنت الارض حزونة ، وجفا الثوب يجفو جفاء ، واحزوزم المكان ، وعقد العسل والرب ونحوهما ، واستكثف الشيء ، وكثب الرحل — كثوباً ، وعزز عليه البلد او القبر ، وعزز —

وكنهر الشيء : غلظ وصار شديداً ومثله احجنجر وتكأد البعير واكندى ، وعرز الشيء — عرزاً ، واستعلج الجمل وحدر الوتر حدورة ، وانعقد العسل والرب ونعقد ، وقد اعلوّد الشيء اي غلظ واشتد ورزن .

(اليد) — وشثلت اصابعه — شثلاً : غلظت — ويده ورجله : غلظ لحمها وتراكب وكذلك شثلت شثولة ، وشثنت كفه تشثن شثناً وشثنت شثونة : غلظت وخشنت ومثله شذنت — شذناً ، وعست يده عسواً : غلظت من العمل ، وكذا عظبت يده عظباً وعظوباً ، وكنبت كنباً ، وقد مجلت يده — مجلاً ومجولاً : ومجلت — مجلاً : نفطت من العمل فمرنت ومثله أمجلت وثفنت — ثفناً ، واذا غلظ ظهرها من برد الشتاء فتشقق قيل شرثت يده — شرثاً وانشرثت .

(خشن) — وعبن جسمه — عبناً : غلظ وخشن تقول في جسمه عبن اي غلظ وخشونة ، وكث الشيء — كثاً : غلظ وثخن ، وجشب الطعام — : غلظ وخشن ومثله جشب جشباً ، وحثر الشيء : غلظ وخشن وضخم .

واستغلظ الشيء : صار غليظاً ومثله حزن المكان حزونة اي صار حزناً جي به

على بناء ضده وهو قولهم مكان سهل وقد سهُل سُهولة ، وأحزن بنا المنزلُ .

وضرُك الرجل ضراكة : كان ضريكاً وضُراكاً والضُراك الرجل الغليظ الشديد عصب الخلق وعثِل الشيء عثَلاً : كان عثِلاً اي غليظاً ضخماً ، وجزُل الحطبُ وغيره جزالة : عظم وغلظ فهو جزْل ، وأزَك الشيءُ ـــ أزْكاً : عظم وغلظ ، وتروّت مفاصله : اعتدلت وغلظت ، وجَلم جَلْماً : كان في شدقه غلظ ، وعجِرت الناقة عجَراً : غلظ عجب ذنبها ، وعطَن جسمه : غلظ جسمه ، وتلكَّد الرجل : غلظ لحمه ، وتبلخص زبد : غلظ لحمه وكثر . وتجبّل ـــ : صار كالجبل في الغلاظة ، وعكت الابل تعكو عَكْواً : غلظت وسمنت ، وجفا القلمُ : غلظ قطه .

واكنب الشيءُ ، غلظ ومثله تاز توْزاً وتيْزاً (واوي يائي) واستجب السقاء ، وجبل الشيءُ ـــ جبَلاً فهو جبْل وجبِل . وجنَش ـــ وخنزر الرجل وادلعظى وهبُلت المرأة . وقد ثخُن الشيءُ ـــ ثخونة وثخانة وثخناً اذا غلظ وصلب فهو ثخين ومثله ثخَن ـــ وحدَر جلده ـــ حدْراً وحدوراً ، غلظ وانتفخ وورم قال عمر بن ابي ربيعة :

لو دبّ ذرّ فوق ضاحي جلدها   لأبان من آثارهنّ حدورا

وحدُر الغلام حدارة وحدَرت حدْراً كان حادراً اي ممتلئاً غليظاً . وخثُر اللبن ـــ خثراً وخثُر ـــ خثارة وخثورة ، غلظ . وكشِن البعيرُ ، غلظت مشافره من رعي الشوك وحثِرت عينه ، غلظت اجفانها من رمص او رمد . وأرثأ اللبن وارثأ ، خثر ومثله أرضّت الرثيئة وهي اللبن الحامض يخلط بالحلو .

(التغليظ) ـــ وغلّظ الشيءَ ، جعله غليظاً ومثله اثفن العمل يده . واعقدت العسل والرُبّ وعقّدته اي اغليته حتى غلظ . وأنبل قداحه ، جعلها جافية غليظة .

واستغلظ فلان الشيءَ ، رآه غليظاً ـــ والثوب ترك شراءه لغلظه . واغلظ الثوبَ ، وجده غليظاً وقبل اشتراه كذلك ـ والمسافرُ ، نزل بالغلظ . وأعشّ الرجل ، وقع في ارض عشّة اي غليظة . واستخشن الفراشَ وغيره ، عدّه جافياً اي غليظاً او خشناً .

* * *

(الخلاظة) ـــ وهي الغلاظة والغلاظة والخلاظ . قال احمد شوقي :

ان الشجاعة في الرجال غلاظة   ما لم يزنها رأفة وسخاء

ARCHIVE

وقال خليل مطران في عنترة العبسي :

ولينه في نصابه وغلظته في ملعب الموت بين السمر والخذم

وكذلك الخنزرة والشرز والشرص والشنزرة (الغلظ والخشونة) والشزن والشزونة (الغلظ من الارض) والعكوة والكبدة كقوله في وصف جمل :

ذا كبنة يملأ التصدير محزمه كأنه حين يلقى رحله فدن

والجرز تقول انه لذو جرز . والوكاعة (الغلظ والشدة) والعنف ، الغلظ والصلابة . والجون ، غلظ الوجه وفي التاج غلظ الوجه والجسم . والكشه ، غلظ في جلد اليد وتقبض . والحدر ، اجتماع الخلق مع الغلظ .

وتقول هذا رجل فيه غلاظة اي فظاظة وقساوة ، وفيه عفلطة اي فظاظة . وفيه عكدة وجسارة في خلقه اي غلظ . وبه شثم اي غلظ في الساقين . وفي خلقه قمرزة وقمارز اي سوء وغلظ . وكتال وكتل اي غلظ جسم . وكنب وهو غلظ يعلو الرجل والخف والحافر واليد او خاص بهما اذا غلظت من العمل . وبلمثة اي غلظ جسم مع رخاوة . وانه لذو كندرة اي غلظ وضخامة . وكرمح اي خشونة وغلظ . وتبغيل اي غلظ جسم وصلابة يقال بغل الجسم اذا غلظ وصلب . ويقال انه لشديد الكدنة وشديد الجبلة اذا كان غليظاً . وبه خشمة اي قصر في انفه وغلظ وتفرطح . وجفاء اي غلظ في العشرة ومثل الجعفوة . وعنجهية اي جفوة في خشونة مطعمه واموره . وعجرفة اي جفاء وغلظ خلق . وجحش اي جفاء وغلظ ومثله العيدهة والعيدهية .

« للبحث صلة »

(النبك) : سالم خليل رزق

آراء وافكار

عجز اللغات

وحين أضيف (العجز) للغات لا أستثني واحدة من جميع اللغى المعروفة في العالم ، نعم كلها عاجز ، وان كان هذا العجز يتفاوت بينها بقدر كبير او صغير ، ولقد يخيل اليك وانت تطرح نظرك على ألوان المعاجم والموسوعات إن أكثر اللغات غنى مسرى لم يدع غرضاً الا احصاه ، ولا معنى الا اداه ، ولا جليلاً الا شكله ، ولا دقيقاً الا اصابه ، وخاصة لغة العرب ، فانك تجد فيها من البذخ وعظم الافضال ما يمتد الى شدة الافراط وغاية الاسراف ، فهي تطلق على كل من الجمل ، والغزال ، والسيف ، والخمر ، وغير هذه من الاسماء والنعوت مالا يعلم عدته الا الله . وهي في كل باب تفيض على المعنى الواحد من الالفاظ اشكالاً والواناً ، وبحسبك ان تقرأ للمسهبين من متقدمي اهل البيان من امثال الجاحظ ليهولك الانبهار من غنى هذه اللغة وما بلغت في ذلك العصر ، من اليسار ، الى حد ان الكاتب من هؤلاء يردد على المعنى الواناً كثيرة من التعبيرات والصيغ لا تدعو اليها حاجة في تقرير المعاني واساغتها لفهم القارئ ، وانما تدعو اليها موسيقى النظم من جهة ، ومكاثرة الكاتب بالوفر من اللغة من جهة اخرى .

ومع هذا كله فانني ما زلت ازعم ان اللغات المعروفة كلها ، وفيها العربية قاصرة من بعض النواحي واضحة القصور ، عاجزة شديدة العجز . ولست أريد بتلك الناحية ما سبق لي ان قررته في رسائل (ادبنا القومي) من عجز العربية عن أداء كثير من الاغراض الحديثة ، والمسميات الطريفة ، فان لغات الغرب تؤديها كلها احكم الاداء ، هذا الى ان للعربية عذرها في ذلك فلقد انقبضت دهراً طويلاً البعث فيه العلم الحديث . والهبت أذهان الغربيين على الاستنباط والاستكشاف والابتكار والاختراع ، حتى لم يكد ابناء

الشرق يفقرون عيونهم بعد طول مجمتهم الا وقد راعهم ان رأوا كل ما يحيط بهم غريباً عنهم · جديداً عليهم ، بل الذي أعنيه وانهم اللغى جميعاً بالتقصيرفيه هو شيء قديم جداً ، أقدم من العلم ، وأقدم من الاختراع ، وأقدم من اللغات نفسها ، وهو انفعالات الوجدان ·

نعم ، لقد تهيأ للغات حقاً ان تؤدي حاجات العلم ، وان تفرغ الاسماء على كل مايحيط بنا من الماديات ، وان تسبغ الصيغ على الاسباب الدائرة بين الناس ، وان تبسط الالفاظ المترجمة عن كل مايدور في رؤوسنا من الأفكار والآراء · وبهذا استطاع الناس ان يتطارحوا الافكار ويتبادلوا فنوناً كثيرة من المعاني · ومع هذا قد بقيت انفعالات الوجدان كل هذه الادهار ، بمجزة لا تؤديها اللغة الا بالجملة ولا تمسها ، ان مستها ، الا من بعيد ·

ومن بديه القول ان الناس من يوم درجوا على هذه الارض يحبون ويبغضون ، ويفرحون ويحزنون ، و يبصرون ويسمعون ، ويذوقون ويشمون ، ولكل شيء من هذا اثر خاص في الحس لايكون لغيره ولا يعدوه الى سواه ، وهذا يجده كل انسان ، بل لقد يجده كل حيوان فترى ماذا ارصدت اللغة للترجمة عن هذه الأحساس المشتركة بين الناس جميعاً ؟

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد زعمت لك ان اللغة لاتصيب هذا الضرب من المعاني الا بالجملة ، ولا تمسه ، ان هي مسته ، الا من بعيد ، واني أضرب لك طائفة من الأمثلة يتضح بها هذا المقا ·

هنا لك شيء نعرفه انت ويعرفه الناس جميعاً من عهد آدم وولده يدعى (الحب)· وان المرء ليحب أمه ، وانه يحب اباه ، ويحب اخاه ، ويحب أخته ، ويحب ولده ، ويحب زوجه ، ويحب صحبه ، هو ، في الغاية ، يحب هؤلاء جميعاً وهو لايستطيع ان يترجم لما يجده لكل منهم الا بكلمة (الحب) اذ الواقع انه انما يشعر لكل منهم بشعور خاص متميز لايخالط غيره ، ولا يشبه في كثير من عناصر الحس سواه ، فاذا التمست في الفروق بين هذه الالوان من (الحب) قررت لك انني عاجز عن بيانها بياناً واضحاً دقيقاً لان اللغة لم تبينها بياناً واضحاً دقيقاً وكل مااستطيع ان ابلغه من هذا ان اعين كل واحد منها باسبابه وملابساته لا بجوهره ومذاقه كأن اقول لك ان حب الام يمتاز بعرفان الجميل لما عانت في حمل الولد وولادته ، وإسهاد الجفن في إرضاعه وتعليله ، وتمحيضه اصدق الحب ، وإيثاره حتى على النفس مانبغي من وراء

ذلك اجراً ولاشكراً ، وان حب الاب يمتاز فوق عرفان الجميل بما ربى وماانفق ، وماجهد في سبيل التربية والتأديب ، ويمتاز بالاعظام لانه سبب انحداره الى هذه الدنيا ، و بانه الاصل الذي ينتسب اليه ، ويتعرف الى الناس به . والتمس مثل هذه الاسباب لحب الأخ والولد والام والصحب وغيرهم .

اني أستطيع ان أفعل هذا ، ولكنني لااستطيع ان اقع بك على كل لون من ألوان هذا الحب بحيث تستحضره وتستشعره . كما أستطيع ان اقع بك بفضل التعبير ، على مطالب العقل مثلاً ، فسرعان ماتدركها تامة وتتصورها كاملة . فان شئت ان تحسها وتستشعرها فليس هناك من سبيل الا ان تراجع فيها نفسك ، وتفتش عنها بين اضالعك ، فهناك تعرفها ابلغ المعرفة ، وتدركها اتم الادراك .

وان المرء ليحزن لان يغشى المكروه احداً من هؤلاء ، ولكن لكل حزن كذلك انفعالاً خاصاً لايخالط غيره ولا يشاركه في مذاقه سواه .

ثم انك تشم الورد فتنتعش بشذاه ، وتشم الياسمين فتزكو نفسك بطيب رياه ، وتشم القرنفل والفل والنرجس والمسك والند والعنبر والطيب وغيرها من كل ما يستريح اليه الانف ، وتزكو به النفس ، ولكن ممالا شك فيه ان لكل من هذه ريحاً خاصة ، تنفعل بها النفس انفعالاً خاصاً لايخالطه غيره ، ولا يشركه فيه سواه .

فقل لي عيشك ، كيف كان سبيل اللغة الى التعبير عن كل منها تعبيراً يحضره نفسك ، ويصله بوجدانك ؟ اللهم ان كل ماانتحت له اللغة من نحو مايأتي : هو نبات اوزهر طيب الريح ، له عرف ، له شذى ، له اريج يتضوع الخ الخ . وكل هذه نعوت تصلح للجميع . فاذا هي تزاحمت قليلاً للتمييز والتحديد لاتعدو ان تميز بين بعضها وبعضها بالخفة والشدة والضعف والسطوع ، وهذا مالا يغني في كثير .

ثم انك تطعم من الفاكهة التفاح والخوخ والمشمش والعنب والموز والرمان والكمثرى والسدر والتين والبلح بضروبه ، والكرز والمانجو والبطيخ والشمام والبرتقال واليوسفي ، والليمون الحلو ، وغيرها مما تخرج الارض من فاكهة وثمر ، أفترى في مذاقك واحداً منها مثل الآخر في اكثر مشابهه ؟ الواقع لا ! على ان كلها في تعبير اللغة ، حلو ! فاذا هي استشرفت للتمييز ، وشمرت للاداء لم تزد على حلو حامض ، او مز ، او نحو ذلك مما يسلكها

فصائل لاافراداً ! ومن تداعي المعاني أذكر في هذا المقام ان اميرالشعراء قد أبدع كل الابداع في قوله : (وكذاك كل مليحة بمذاق) ويقول الله تعالى في كتابه العزيز (والنخل والزرع مختلفاً أكله) وليس بعد كلام كلام الله تعالى كلام .

ثم انك لتفرح و يشيع قبك السرور : تفرح لانك اصبت ثروة ، وتفرح لان ابنك أبل من مرض ، وتفرح لانك ظهرت على عدو ، وتفرح لانك وافقت حبيباً في غفلة من الرقباء ، وتفرح لانك أصبحت ذا منصب وجاه ، وتفرح لانك هديت الى زوجة صالحة — انك لتفرح لكل هذا ولغيره وتسر به وتغتبط ، ولكن لكل فرح من هذه مذهباً ، ولكل منها وجداناً يميزه عن غيره ، و يستقل به عماعداه . اذ اللغة لا تسعفك في هذا كله الا بالفاظ الفرح والسرور ، والاغتباط ونحو ذلك مما لايجدي فيما نحن بسبيله فتيلا .

هذه طائفة من الامثال اوردتها عليك لتدرك بها مبلغ عجزاللغات في هذا الباب . ولاشك بعدها في ان امرءاً لم يرزق الولد يستحيل ان تشعره حب الولد ، وان امرءاً لم يطعم الكمثرى يستحيل ان تقرب من نفسه مذاقها ، وان امرءاً لم يرتفع الى المنصب هيهات ان يستشعر لذة الجاه والسلطان ، وذلك ان اللغة التي واتت مطالب الانسان في كل شيء ، وافضلت عليه الافضال كله ، واذنت له في ان يسرف في الالفاظ ، ويتبذخ بفنون التعبيرات في كل جليل وحقير ، حتى لقد اسعفت خياله في الصعود الى جو السماء ، والغوص الى قرارة الدأماء ، واقامت له عند السماك مأربا ، وفسحت له في الأفلاك مطلباً ، ورحم الله ذلك الشاعر البارد يقول عن ممدوحه :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته   لما رأيت عليها عقد منتطق !

هذه اللغة التي واتت بهذا كله ، واسعفت في ذلك اجمع ، ما زالت تضن على الناس بالاسعاد فيما يجده كل امرىء منهم كل يوم وكل ساعة وكل لحظة : مما تختلج به احساسهم وتجيش به عواطفهم ، ويتحرك له وجدانهم !

* * *

وبعد فثم مسألتان ان لم تدخلا في صميم هذا الموضوع فانهما متصلتان به اوثق الاتصال ، واحداهما جمال الخلق ، والثانية جمال الصوت . وقبل كل شيء نقرر ان

ارادة اللغة على ان تتناول موضوعها بالتبسط والتفصيل لاتخلو من الارهاق والاعنات ٠ على انها اذا لم تكن مطالبة بالتفصيل فهي ولا شك مطالبة بالاجمال ٠

جمال الخلق في كل مكان من هذه الارض وفي كل زمان ٠ وان الناس ليتعشقون الجمال ويكلفون به ، وانه ليأخذ في نفوسهم كل اخذ ، حتى مايكاد يدع بعضهم يفكر او يتحدث الا فيه ، او يطلب من دنياه غير هواه ، ولقد تبلغ به الفتنة في هذا الى حد الصرع والى حد الجنون ٠ وكثيراً ماتجرد الشعراء والادباء في وصف فتاة مليحة فافتنوا في هذا وتطيرت فيه أخيلتهم كل مطير ، ولكنهم كسروا كل جهدهم على ان هذه المرأة او تلك الفتاة فتانة ، بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، فاذا هم تدنوا الى التفصيل مازادوا على انها فارعة الفرع (هذا اذا كان شعرها مسرحاً) او انه (أثيث كقنو النخلة المتعثكل) اذا كان شعرها جعداً ، وانها واضحة الجبين ، وانها مقوسة الحاجبين ، حتى لكأنهما (نونان) وانها سابغة الهدب ، نجلاء العينين ، اسيلة الخدين حتى كأن الشمس تجول فيهما ، وان لها أنفاً كحد السيف ، وان لها شفتين قدتا من العقيق ، وثنايا صيغت من الدر اوالتوم ٠

وثناياك انها اغريض ولآل توم وبرق وميض

واقاح منور في بطاح هزه في الصباح روض اريض

الى آخر مايسمح على الغانيات ، من فنون النعوت والصفات ٠

وانك لتخرج بعد هذا ، وذهنك لا يتصور كل جميلات النساء في عشرة قرون الا مطبوعات على غرار واحد ، بارزات للعالم في صورة واحدة ، بحيث لايقع بين خلقهن اي اختلاف اللهم الا في الاسماء والالقاب ٠ فهذه هند ، وهذه دعد ، وهذه تماضر ، وهذه بثينة ، وهذ، ليلى العامرية ، وهذه ليلى الاخيلية الخ ٠ ولعمري ، است أدري كيف كان كل شاعر متعشق من شعراء العربية يميز معشوقته ويهتدي الى هواه بين سائر الجميلات من النساء ؟ وما يحدث به عن الجمال ، في هذا ، حدث به عن القبح سواء بسواء ٠

الواقع انه من العنت والارهاق ان تريد اللغة على ان تصف لك خلق انسان حتى كأنك تراه او ترى له تمثالاً محكماً او صورة من نقش صناع ٠ وانه معها جد المرء ودق وصدق في وصف انسان يتناول كل اعضائه وتصوير جميع اجزائه ٠ فانك حين تراه

تراه على صورة مغايرة للصورة التي تمثلت في ذهنك تمام المغايرة . ولكن المشاهد المحسوس ان الناس مهما تفرقوا في خلقهم بالحسن والقبح . ومهما اختلف الخلق بين كل من هؤلاء وكل من هؤلاء ، فانه ما من انسان الا ينتسب في كيفية تكوينه ونظام خلقه الى فصيلة معينة تحس بها انت في نفسك ، و يشعر بها غيرك في نفسه ؛ سواء أكانت دارسة المعالم ام واضحة الحدود .

وهنالك اصوات المغنين مثلاً . تسمع منها العشرات او المئات فترى لكل واحد منها لوناً ، وتجد له مذاقاً خاصاً ، فاذا أردت ان تصف احداها لمن لم يسمعه فاتت تعدو ان تقول انه جميل ، اوحلو ، فاذا طلبت (الفن) ليعينك و يسعدك في وصفك ، قلت انه رفيع او عريض ، وانه اذا ارتفع تسلخ او ظل على استمساكه ، وانه اذا تدلى الى (القرار) تفلص اودوى وتفخم الخ على انك لا تخرج من هذا بجليل ، اللهم الا ان يقول لك ان هذا الصوت من (بدنية) صوت فلان ولست خارجاً بشيء اذا لم تكن سمعت صوت فلان هذا .

والواقع ايضاً انه ما من صوت كريم او غير كريم الا ينتسب ، في الاصوات ، الى فصيلة معينة تحسها انت و يحسها غيرك ، سواء أكانت هي الاخرى دارسة المعالم ام واضحة الحدود .

والحاصل ان اللغات لم تعن العناية الكافية بتعيين هذه الفصائل فلم تحرر لها من الالفاظ والصيغ مايجليها تمام التجلية على النفس . ويصلها تمام الصلة بالشعور .

نعم ، لقد عنيت لغات الغرب بشيء من هذا ولكن الامر مايرح يتطلع منها الى مزيد . اما العربية فما احسبها عنيت منه بجليل ولا صغير .

* * *

وبعدُ فلو انه قدر للغات ان تندس الى مطاوي الوجدان فتحدث عن كل ما يشيع فيه من شعور ، ويترقرق من حس ، ثم لو انها استطاعت ان تمثل للنفس ، ولو على جهة التقريب ، صورة مما تقع عليه العين وتسمعه الاذن — لتم للادب كاله ، وتهيأ للنفس ان تنفض كل مافيها واضحاً جلياً في غير مطاولة ولا كبير عناء . ثم لقام قلم الشاعر اوالكاتب

مقام ريشة المصور او (اسطوانة الفونغراف) وذلك المثل الاعلى للادب الصحيح . فهل ترانا بالغيه في يوم من الايام ؟ .

وربما كان من الخير ان نعـاود هذا الموضوع تزلة أخرى فانه اجل واشفى من ان يستوفي الكلام فيه بمقال .

« باحث »

—«*»—

مقتطفات

« من كتاب الحيوان للجاحظ »

كنت منذ سنين قرأت كتاب الحيوان للجاحظ وعدت الى قراءته فاقتبست منه عدداً من المصطلحات والملحوظات أذكر منها طائفة فيما يلي :

أوردتُ في الصفحة ١٩٥ من المجلد الحادي عشر من هذه المجلة ان ابن العوام استعمل لفظة «الصنف» بمعنى Variété وقد اتخذ الجاحظ ايضاً تلك اللفظة لذلك المعنى . قال في ج ٢ ص ٧٩ و ٨٠ « ومن اصناف الكلاب مايحمل ربع السنة » .

واستعمل حرسي القسمة والتصنيف بمعنى Classification فقال (ج ٤ ص ٩٠) « وقد وضع الكلام على قسمة أجناس الحيوان وعلى تصنيف ضروب الخلق ... » .

ولقد قلت مراراً ان كتّاب العرب الأقدمين كانوا يطلقون الفاظ جنس ونوع وصنف وضرب على مختلف حلقات التصنيف لأن وضع هذه الحلقات وتثبيتها مما عمل من أعمال البارحة فترى الجاحظ مثلاً يستعمل لفظة « الضرب » «للأنواع » Espèces من الطيور حيث يقول (ج٣ ص٤٥) « والقمري حمام والفاختة حمام والورشان حمام وكذلك اليمام وضروب أخرى » . اما في الصفحة ٦٦ من المجلد ٥ فتراه يستعمل لفظة «الضرب» المذكورة بمعنى Catégorie او Division وذلك في الجملة الآتية :

« والطير كله على ثلاثة أضرب فضرب من بهائم الطير وضرب كسباع الطير وضرب كالمشترك المركب منهما جميعاً » . وهو يطلق لفظة « الجنس» على ما سمي بالفرنسية Espèce اذ يقول (ج ٥ ص٦٧) « والأجناس التي تعايش الناس الكلب والسنور

والفرس والبعير » . اما لفظة النوع فهو يعبر بهـا عن الحلقات Genre و Espèce و Variété على السواء في مواضع شتى .

وقرأت في الصفحة ٨٣ من الجزء الثالث « واجمل حمام النساء المسرولات المظام الحسان ... واجمل حمام الفراخ من غير ذوات الأعراق الكريمة » . فالأعراق هنـا بمعنى Races لأن هذه الحلقة هي حلقة الأصناف التي رسخت صفاتهـا وتأصلت (انظر مجلة المجمع سنة ١٩٣٠ ص١٩٣) .

والخلاصة ان حسن حظ اللغة جعل علماء اليوم يتفقون على تخصيص Genre الاعجمية بلفظة جنس و Espèce بلفظة نوع حتى صار القول في هذا الباب شيئاً يكاد يكون من الفضول . اما تخصيص Variété بلفظة صنف فقد كان انكره عليّ العالم الدكتور محمد شرف صاحب المعجم في العلوم الطبية والطبيعية مع ان ابن العوام والجاحظ لم ينكرا ذلك . وانكر ايضاً اطلاق العرق على Race مع أن ذلك له وجه كما ترى وكذا لفظة رس للعلامة الأب انستاس .

والقضية ليست سوى تواضع العلماء على تخصيص كل حلقة من سلسلة التصنيف بلفظة واحدة ولهذا لا يجوز ان يفرض احد العلماء في هذا الصدد رأيه على سائر علماء العربية فرضاً . واذا كان المجمع العلمي العربي بدمشق يدرج في مجلته آراء اعضائه في هذه الألفاظ وفي كل المصطلحات العلمية الحديثة دون ان يقرها في جلسة رسمية فما ذلك الا لعلمه ان هنالك أقطاراً عربية أخرى غير الشام فيها علماء لهم آراء محترمة وانه لا يجوز ان تقر لفظة ما رسمياً الا في مجمع علمي مشترك ما برحنا نرغب تأسيسه . اما مجمعنا في دمشق يراعي هذه المسألة المهمة الى هذا الحد فأحر بالأفراد العلماء في مصر والعراق خاصة ان يتشددوا ويتواضعوا قليلاً فلا يلزمونا بآرائهم كأنها قرآن منزل وليرقبوا مثلنا ظهور هذا المجمع المشترك حيث يرون المجال متسعاً لتحري أصلح الألفاظ لمعاني العلمية الحديثة .

وهنالك مؤلفون ربما اقتبسوا وانتحلوا الألفاظ التي وضعها أعضاء مجمعنا فحبذا لو عدل هؤلاء فلم يجعلوا حظنا منهم كحظ العلامة الدكتور امين باشا المعلوف من الاستاذ المحقق الدكتور شرف فان الثاني اقتبس في معجمه كثيراً من ألفاظ معجم الحيوان تأليف الاول دون ان يذكر معجم الحيوان في جملة المنابع التي استقى منها . ولا شك ان ذلك

سهو وقع فيه الاستاذ شرف (جل من لاعيب فيه) لكنه لايجوز ان يسهو علماؤنا عن مثل هذا ٠

وانعد بعد هذا الاستطراد الى ذكر بعض الألفاظ التي لفتت نظرنا في كتاب الحيوان ٠ قال الجاحظ في (ج٣ص٨٣) : « جميع الفراسة لاتخرج من اربعة أوجه اولها التقطيع والثاني المجسة والثالث الشمائل والرابع الحركة ٠٠٠ فالتقطيع انتصاب العنق ٠٠٠ واتساع المنخرين ٠٠٠ وقصر المنقار » الخ ٠ وهنا يحفظ الله استعمل لفظة التقطيع بمعنى Morphologie تماماً قال : « هذه أعلام الفراسة في التقطيع » ٠ قلت اي في المورفولوجيا ٠

اما المجسة فاستعملها بمعنى Maniement وكنت ذكرتها لهذا الغرض ٠ واماالشمائل فبمعنى Caractères ٠

وجاء في (ج٧ص٤٨) « وقد يكون في الخلق المشترك وغير المشترك ٠٠٠ فالمشترك مثل الانسان الذي يأكل الحيوان والنبات » ٠ فترى ان لفظة المشترك في هذا الباب تصلح للتعبير عن كلة Omnivore الفرنسية ٠

وأورد في (ج٣ص٨٣) الجملة الآتية في تدجين بعض الحيوانات « ولا بد لجميعها من الصرامة ومن التعليم اولاً والتوطين آخراً » فلفظة التوطين أطلقها على Acclimatation وهي كالإيلاف الإقليم التي ذكرتها في مقال سابق ٠

ولفت نظري في (ج ٢ ص ٧٩ و ٨٠) تعبيران يفيدان الغاية اي بمعنى Au maximum وهما « اطول مايكون » و « في الفرط » في الجملتين الآتيتين :

« والكلبة الانثى تحمل واحداً وستين يوماً أطول مايكون » ٠

« وأكثر ماتضع الكلبة اثنا عشر جرواً وذلك في الفرط » ٠

ورأيت في (ج ٢ ص١١٥) الجملة الآتية : « ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً ٠ ورأيت فيها ايضاً عن الغراب « فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضائه ٠٠٠ » ٠ فالذي يلفت النظر في هاتين الجملتين لفظة التركيب فالجاحظ ساقها بمعنى Composition على حين ان بعض الكتاب يترجم هذه

اللفظة الأجنبية بحرف « يـ.ـا» . وأظن ان هذا الحرف الأخير كان استعمله العلامة الفقيد بعقوب صروف ثم عدل عنه للفظة التركيب وهي لاعتبارها وتفيد المعنى المذكور. وقرأت في (ج٤ص١٠٣) « غرائز أخر وخاصيات أخر » . وفي (ج٣ص٨٢) « ولم ينبهوني على هذه الخاصة التي فيه » . قلت ان لفظة الخاصة بمعنى Propriété موجودة في الأمهات لكنك لا تجد فيها لفظة الخاصية بالياء . ومع ذلك عثرت على اللفظة الاخيرة في مادة «سنبل» من القاموس مع ان الفيروزابادي لم يذكرها في مادتها. والخاصية من المولدات كالفاعلية وأشباهها .

وتمثل الجاحظ في (ج٣ص١٠٨) بالبيت الآتي :

يا ليلة لي في حوران ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

وأورد ذلك البيت في (ج ص ٧٢) هكذا :

يا ليلة لي بحوار ين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

قلت سواء أكانت ليلة الشاعر في حوران أم في حوّارين (قرية في عمل القريتين الى شرقي حمص الجنوبي) فان الذي يلفت النظر قوله ليلة ساهرة وهو تعبير نصت عليه المعاجم . وهنا يرد على البال السؤال الآتي وهو الا يجوز ان نقول على هذا القياس ليلة راقصة وليلة عازفة بمعنى Soirée dansante و S.musicale من البديهي ان الليلة لا ترقص ولا تعزف . لكنهـا لا تسهر ايضاً . فكما جاز استعمال اسم الفاعل من « سهر » كذلك يجوز استعماله من الفعلين المذكورين ولو مع التجوز . وأمثال ذلك كثير .

وأدخل الجاحظ في (ج٦ص١٥٩) ال التعريف على (غير) في الجملة الآتية : « وخبرني بعضهم انه رأى من يبكي باحدى عينيه و يأتي بقترحها عليه الغير » . وهذا الوجه جائز لدى بعض اللغويين .

وكان بعضهم انكر استعمال حرفي جر متعاقبين مع انهم نصوا على جوازه . وقرأت في (ج٥ص١٣٠) « فكنت والله ارى البعوضة تطير من على ظهر الثور » .

وأدخل التاء على لفظة العنز وهو غريب قال في (ج٥ص١٤٧) « انني اتخذت عنزة رجوت رِسْلها ونسلها » . وجاءت ايضاً كذلك قبل بضعة أسطر .

واستعمل لفظة القوصرة بمعنى الأصيص « شقفة زريعة » . قال في (ج٥ص١٢٥)

فقالوا لي ان الأراك انما ينبت من الأراك يغرس في جوف طين في قواصر و يسقى الماء اياماً ... » .

وفي الصفحة ١١٠ من الجزء ٣ وجدت لفظة القبو (ج الأقباء) بمعنى (ave وبودروم) أي بالمعنى الذي نعرفه في ايامنا هذه . قال « والباقلاء اذا عتق شيئاً في الأقباء استحال كله ذباباً فربما أغلقوه في تلك الأقباء ... » .

وقسم الطيور الى قواطع وأوابد . و بمقابلها بالفرنسية Oixaux migrateurs و O.indigènes قال في (ج٢ص٦٥) والخطاف من القواطع غير الأوابد اذا قطع الى الأنس لم يبن بيته الا في أبعد المواضع » .

وجاء في (ج٢ص١٠٤) « ولقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخة » .

واستعمل في (ج٣ص٩٩) لفظة القائلة بمعنى Sieste كما وردت في المعاجم . وكان استعماله اياها على أوجه شتى قال « كنت أريد القائلة فأمرت باخراج الذباب ... فكنت أدخل الى القائلة فيأكلني البعوض ... فأتيت ذات يوم المنزل في وقت القائلة ... » .

وفي (ج٣ص٤٥) ذكر الماعزة والضائنة بمعنى المعز والنعجة .

ومن التعبيرات الشيقة التي لفتت نظري « عبد عين » في الجملة الآتية الواردة في (ج٣ ص٢٦) وهي :

« ويقال للمرائي ولمن اذا رأى صاحبه تحرك له وأراه الخدمة والسرعة في طاعته واذا غاب عنه وعن عينه خالف ذلك انما هو عبد عين » .

ومنها « التفخ والتزيد » الواردة في (ج٧ص٥٦) حيث قال « واعلم أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس وهم اهل تفخ وتزيد ولا سيما في كل شيء مما في باب العصبية » .

ومنها الوصف الآتي للرجل المجد في (ج٣ص٢) « إلف تفكير وتقدير ودراسة كتب وحلف تبيين » .

ومنها في وصف الكتب القديمة ووصف حفظها التمس من المترجمين والخطاط (ج١ص٤٠) « كتاب متقادم الميلاد دهري الصنعة .. فما ظنكم بكتاب يتعاقبه

المترجمون بالإفساد وتعاوره الخطاط بشر من ذلك » .

ومنها تعبيرات مابرحت شائعة على الألسنة كضرّاب اللبن في الجملة الآتية التي تجدها في (ج ٤ ص ١٣٩) « ولم أر سقاء قط بلغ حال اليسار والثروة وكذلك ضرّاب اللبن والطيان والحراث ... » . وكما قوا على دوابهم في الجملة الآتية الواردة في الصفحة ١٣٥ من الجزء نفسه « .. حين نزلوا وبهم كلال السير وحين ماقوا على دوابهم ... » .

هذه طائفة مما اقتبسته من ذلك السفر الثمين فلعل فيها فائدة للكتاب والمترجمين .

مصطفى الشهابي

مطبوعات حديثة

النثر العربي في القرن الرابع للهجرة

— بقلم —

الدكتور زكي مبارك

-*-

رسالة أنشأها الدكتور زكي مبارك باللغة الفرنسية وقدّمها الى جامعة باريز .

بحث فيها عن خصائص النثر في القرن الرابع للهجرة فأشار الى محاسن هذا النثر والى معايبه وحاول ان ينسلخ في مباحثه من تأثير علماء المشرقيات .

القرن الرابع في نظر الدكتور انما هو من اعظم القرون شأناً فان للغة فيه خصائص لم تكن لها في العصور السالفة ، من هذه الخصائص اجتهاد الكتّاب في تنميق كتاباتهم بمحاسن الشعر فان قدماء الكتّاب لم يخطر ببالهم ان يقلّدوا الشعراء ، اما كتّاب العصر الرابع فقد قلّدوهم مقتصدين في تقليدهم دون شيء من الاسراف وانما الاسراف وقع من قبل خلفائهم في العصور اللاحقة .

ومن خصائص النثر في القرن الرابع التقفية والسجع وفي هذا العصر ظهرت المقامات وان لم تكن المقامات من وضع العصر الرابع وانما كانت من اقتباسه .

وقد ذكر الدكتور في رسالته انه نبّه على أضاليل في تاريخ ادب العرب من جملتها وضع البديع والبيان وانشاء المقامات واصل الصناعة اللفظية وما شابه هذه الامور .

تتضمن الرسالة مقدمة وخمسة وعشرين فصلاً وخلاصة .

اما الفصول فقد بحث فيها صاحبها عن النثر قبل الاسلام وبعد الاسلام وفي القرن الرابع للهجرة وعن البلاغة في ذلك القرن وعن مصادر الصناعة اللفظية او التكلف في الكتابة وعن الحياة العقلية وعن المقامات وعن أحاديث ابن دريد وعن روايات الأغاني وعن الاخبار بين والقُصّاص وعن تراجم ابن العميد والصاحب بن عبّاد وبديع الزمان والخوارزمي والتوحيدي وابن نباتة والخطيب والصابي وابي حسن الجرجاني وابن فارس والثعالبي وابي هلال العسكري وابن شهيد الاندلسي واحمد بن يوسف المصري والتنوخي .

أبرز صفات هذه الرسالة بناء صاحبها على اصول برونتير (Brunetière) في مباحثه ، فمذهب (برونتير) في الأدب انما هو مذهب (التطور) فان (برونتير) لا يؤمن بمذهب التولد الذاتي في الأدب فالطريقة الغنائية في القرن التاسع عشر لم تظهر فجأة وانما هيئت من القرن الثامن عشر .

وعلى هذه الأساليب جرى الدكتور زكي مبارك في مباحثه فالنثر العربي لم يخلق فجأة وانما العرب كان لهم قبل الاسلام نثر يفصح عن شرف نفوسهم وعن طبيعة احساسهم وانما آثار هذا النثر قد فقدت فقد كان قبل الاسلام أدب وفلسفة وفن فلا يتصور العقل ان ينفجر فجأة في جاهلية جهلاء لا يفكر احد منها في بلاغة او في عروض او في نقد أثر كالقرآن رائع الحسن ، فالدكتور زكي مبارك من هذه الناحية يخالف الدكتور طه حسين ويصرح بهذه المخالفة .

وكذلك المقامات لم تخلق فجأة وانما اقتبسها الحريري عن الهمذاني والهمذاني عن ابن دريد صاحب الأحاديث وعلى هذه الصورة انتقلت أحاديث ابن دريد على الأيام من طور الى طور حتى طبعها الهمذاني والحريري من بعده بطابع خاص .

* * *

لا شك في ان أدب العرب في أمثال هذه المباحث يدخل في طور خاص فلا يأتي عليه حين من الدهر الا وأوائله مرتبطة باواخره بحيث يصبح سلسلة محكمة الحلقات ·

على اننا اذا أردنا ان نصل الى هذه الخواتيم المحمودة لزمنا ان نوازن بين الآثار فاذا ذكرنا مثلاً ان اصل المقامات مقتبس من احاديث ابن دريد وجب علينا ان ننبه على مواطن الاقتباس حتى يتبين لنا كيف انتقل هذا النوع الأدبي من حال الى حال او من طور الى طور على الأيام ولئن تعذّر علينا ان نقايس بين آثار اللغة الجاهلية واللغة الاسلامية لفقدان المصادر الجاهلية فما يتعذر علينا ان نقايس بين الآثار التي جاءت بعد الاسلام حتى ندرك مختلف أطوارها وانما الرأي المجرّد غير المبني على امثال هذه الموازنات والمقايسات لا يفعل فعله في العقول ·

« شفيق جبري »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أشعة رونتجن

« الجزء الاول في تشخيص الامراض الباطنة لمؤلفه الدكتور محمد فريد »
« خريج جامعة برلين والاختصاصي في الامراض الباطنة والأشعة »

هو كتاب يقع في ٦٥ صفحة قسمه مؤلفه قسمين بحث في الاول منهما عن فحص المعدة باشعة رونتجن وتشخيص امراضها فبين مكانة فحص المعدة بالاشعة فطريقة الفحص فشكل المعدة السليمة واشكال المعدة المصابة بالقرحة او السرطان فصورة الاثني عشري المصاب بالقرحة ·

وجاء في الرسالة الثانية على فحص الامعاء وتشخيص أمراضها وكيفية فحص المعى الدقيق ووظيفته ، وكيفية فحص المعى الغليظ وتأثير العقاقير فيه وتكلم عن انسداد الامعاء وضيقها وأورامها وديدانها وسلّها وعن التهاب الزائدة وركود الصائم وتقصيره وغير ذلك مما يعتري الانبوب الهضمي من التبدلات والامراض ·

والكتاب اذا نظرنا اليه نظرةً عمليةً حسنُ التبويب غزير المادة فيه احدث ماجاء به

علم الاشعة ، مزين بمائة رسم وشكل ، متقن الطبع . فليس لنا والحالة هذه الا ان نشكر لمؤلفه ذلك العناء الكبير الذي قاساه في نقل مستحدثات هذا العلم الى لغتنا العزيزة .

غير انا كنا نودّ ان تكون لغة الكتاب نقية خالية من الخطيئات اللغوية والنحوية والصرفية وان تكون مصطلحاته الطبية صحيحة منطبقة على ما وضعه الناهضون بلغتنا العزيزة في هذه الحقبة الأخيرة من الزمن . ولا يخفى ان لغة المؤلفات لا تقلّ مكانتها عن العلم نفسه لانها الثوب الذي يظهر به ذلك العلم فاذا ما كان جميلاً أكسب العلم نفسه رونقاً وجمالاً واذا ما كان ركيكاً أثر في مظهر العلم اذا لم يؤثر في جوهره .

ليست غايتي ان أبين جميع ما في هذا الكتاب من الخطيئات اللغوية فانك لا تكاد تقرأ سطراً حتى تقع على خطإ او اكثر بل غايتي ان أورد مثالاً للقراء الكرام .

فمن الخطيئات قوله :

كان ينقص لغة الناطقين بالضاد كثيراً . . .
بادرت بتأليف . . .
ما لم من ايادي بيضاء . . .
فقد نشاهد إسراع في طرد . . .
فان الرئتين مملوءتين . . .
بل ونستطيع . . .
ثم جعلوه اجوفاً
لم يستطاع
لا يؤثر عليها
ثم استعيض تحت كاربونا ـ البزموت عن تحت ازوتاته
٤٠٠ جراماً
اذا كان بين الجدران فراغاً
اما نحن نرى

وتصادف تلك المدة عند الرجال أقوياء
البنية عريضي التركيب
تعتبر الصور الثلاثة
ان الثلاثة أصناف
او الثانية عشر الصدرية
للعامود الفقاري
تراكد محتويات المعدة
أورام الكبد وتضخماته
مع ماحولها من الأنسجة
حتى يقدمون
وقد يقع بين شكلي معدة الرجل والمرأة اختلافاً
اربعة ساعات
جدولاً آخراً
حواف الاخير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وترى المعدة والحجاب الحاجز مندفعان

والا اذا استمرينا

مستوى الضلع التاسع أو العاشر

الاعتقاد بندورة

وغير ذلك من مئات الخطيئات ، وصحيحها :

كان ينقص لغة الناطقين بالضاد كثير	تعتبر الصور الثلاث
بادرت الى تأليف	ان الأصناف الثلاثة
مالم من اياد بيضاء	او الثانية عشرة الظهرية (وليست الصدرية)
فقد نشاهد إسراعاً في طرد	العمود الفقاري
فان الرئتين مملوءتان	ركود محتويات المعدة
بل نستطيع	اورام الكبد وضخاماتها
ثم جملوه أجوف	مع ما حولها من النسج
لم يستطع	حتى يقدموا
لا يؤثر فيها	وقد يقع بين شكلي معد في الرجل والمرأة اختلاف
ثم استعيض بنحت لحات البزموت عن نحت	اربع ساعات (وهذه الخطيئة مكررة كثيراً)
ازوتاته	جدولاً آخر
٤٠٠ غرام	حافات الاخير
اذا كان بين الجدران فراغ	وترى المعدة والحجاب الحاجز مندفعين
اما نحن فنرى	والاً اذا استمررنا
وتصادف تلك المعدة - في الرجال الأقوياء	مستوى الضلع التاسعة او العاشرة
البنية العريضي التركيب	الاعتقاد بندارة

وفي الكتاب كثير من الأوضاع المغلوطة نرغب في تنبيه المؤلف الفاضل اليها منها :
(الهيكل العظمي) صوب سطر ٧ والاصح الصقل كا ارتأى العلامة الاب انستاس الكرملي لان كلة (squelette) باليونانية (skeletos) معناها الضامر الضعيف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليابس اوالمنهضم الخاصرتين ثم توسعوا في معناها فأطلقوها على هيكل عظام الانسان فاذا جردت الكلمة اليونانية من (etos) وهي علامة الاعراب بقي (skel) المقابلة لصقل لفظاً ومعنى ·

(الكشف الاكلينيكي) ص ج سطر ١ لا يزال زملاؤنا المصريون متعلقين تعلقاً لاانفكاك منه بهذا اللفظ الأجنبي الثقيل مع ان معنى (clinique) « دروس تلقى على سريرالمرضى » فلنحسن إذن نسبتها الى السرير · فيقال الكشف السريري والدرس السريري والخ · ·

(التشريح المرضي) (autopsie) بعد الوفاة ص ج سطر ١٣ وقد اشتهرت ترجمة (autopsie) بفتح الميت اما التشريح المرضي فمعناه (anatomie pathologique)

(الليكيمي) (leukémie) ص د سطر ١٣ ومعنى هذه الكلمة ابيضاض الدم وترجمتها خير من تعريبها على ما أرى ·

(الجوترالجحوظي) ص د سطر ١٤ وهي الجَدَرَة ج أجدار اوالجَدَرَة ج جَدَر وجُدَر ·

(البروستاتا) ص د سطر ١٥ وقد ترجمها العلامة الكرملي بالموثة ولاغبار على هذه الترجمة لان الكلمة أخف لفظاً واسهل نسبة من الكلمة الأعجمية ·

(فتح البطن لتجربة) ص٥ س١٥ والأصح قولنا « فتح البطن الاستقصائي » ·

(القفص الصدري) ص٦ س١٣ وهو القُوس على رأي العلامة الكرملي ·

(المجس) (bougie) ص٨ س١١ والصحيح « الشمعة » ·

(aneuorysm) ص٨ س ١٤ وترجمتها ام الدم ·

(الجلاتين) ص٩ س٤ وهو الهُلام ·

(بالون) (ballon) ص١٢ س١٣ وهو الحوجلة ·

(الفقية) (transversale) ص١٣ س٦ والصحيح معترضة لان الفقية ترجمة (horizontale) ·

(الأجواف) (Antrum) ص١٣ س١٧ والصحيح الجيب لان أجوف قد اطلقت على ترجمة (cave) ·

(سيفون) (siphon) ص١٤ س٩ وهي السحارة ·

(العظم العانى) (symphyse) ص١٦ س٦ وهو الوصل العانى وليس العظم نفسه ·

(العاصر للاجوف) (sphincter antrum) ص٢٠ س١٧ وهي مصرة الجيب ·

(عدم كفاءة) والافضل تقصير ·

(سل النخاع الشوكي) (tabès dorsalis) وهو السهام حسب تسمية الاب الكرملي والكلمة من اصل لاتيني ·

(سرطان قسم البواب) ص٣٣ والاصح ترجمة (région) برجا لما بين الكلمتين من التقارب اللفظي ·

(القولون الهابط) ص٤٣ س١٦ و يعني به (colon descendant) وهو النازل وليس الهابط لان هذه الكلمة تعني (ptosé) ·

(askaris) ص ٥٠ وتجب ترجمتها بخراطين المعى ·

* * *

هذا نذر مما وقع عليه بصرنا حين تصفح هذه الرسالة وقد كنا نود ان تكون منزهة عن هذه الشوائب لتزف الى اللغة العربية نقية صافية · فعسى ان يتدارك مؤلفها الفاضل هذه الخطيئات الكثيرة في الطبعة المقبلة ويهذب لغتها فترتدي الحلة العربية الفصحى ·

الدكتور
مرشد خاطر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

—«*»—